18me; année No 877

Le Caire 24—4— 1950

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

AKRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العدد ٨٧٧ « القاهرة فى يوم الاثنين ٦ رجب سنة ١٣٦٩ — ٢٤ أبريل سنة ١٩٥٠ — السنة الثامنة عشرة »

« حيـــاتى » *

« حياتى » هى حياة صديقى الدكتور أحمد أمين بك ، ألفتها الوراثة والبيئة والأقدار والظروف والمواهب والأخلاق والجهود فى مدى أربع وستين سنة ، فجاءت فصلا متميزا من كتاب الحياة العام . وقليل من الناس من ينهى بفطرته وعبقريته ليكون مادة من مواد هذا الكتاب . أما الأكثرون فأكثرهم ينكرهم المؤلف الأعظم إنكاره للمعدوم ، وأقلهم يذكرهم إما لحقا فى حاشية وإما عرضا على هامش .

هذا الفصل الطويل الجليل لخصه أحمد أمين بقلمه فجاء قصة من قصص البطولة النفسية فى ثلثمائة وخمسين صفحة من الحجم اللطيف ، تقرأها وأنت ترجو ألا تشغل عنها ، وتفرغ لها وأنت ترجو ألا تفرغ منها !

قرأتها فى جلستين اثنتين على كلال بصرى ووهن أعصابى ، فكنت كأننى أشهد بخيالى وذهنى فلما ثقافيا عجيب المناظر مختلف الألوان جم الصور يمتع العقل والقلب جميعا .

كان ما أجده من الشوق واللذة وأنا أقرأ « حياتى » لأحمد أمين ، يشبه ما كنت أجده من الشوق واللذة وأنا أقرأ « الأيام » لطه حسين : شوق ولذة من نوع غريب الطعم والأثر لم أذقهما فى حياتى الأدبية قبل هاتين المرتين فى هذين الكتابين . وليس معنى ذلك أن « حياتى » و « الأيام » يشتركان فى مذهب فنى واحد ، بل معناه أنهما يشتركان فى اجتناب النفوس وامتلاك المشاعر بشىء آخر غير الفن . قد يكون ذلك الشىء فى الجمال النفسى الذى يتجلى فى الصدق حين يجوز الكذب ، وفى الصراحة حيث تنفذ الكناية ، وفى التفصيل حيث يسهل الإجمال .

وقد يكون فى الروح القوى الذى يهيمن على الكتابين ، فيظهر هناك فى عمق الشعور ، كما يظهر هنا فى عمق الفكر

وقد يكون فى التصوير الدقيق البارع لتربية روحية سخيفة المادة ، وبيئة شعبية سخيفة الدينية ، ولا يزال لهما فى النفوس أثر وبالقلوب نوطة .

وقد يكون فى أولئك كله ، وما أولئك كله إلا الصفات الجوهرية التى لا بد منها للمكتوب الصحيح وللكاتب الحق عبر صادقا عن نفسك تتجاوب أنت والناس ، وانقل أمينا عن بيئتك تتعارف أنت والطبيعة .

* * *

قال لى صديقى ذات يوم ونحن جالسان فى المجمع . صاحت

* كتاب للدكتور أحمد بك أمين نشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر

إليك بأول نسخة تخرجها المطبعة من كتابي ، وسأمضي فيه على رأيك ولو كلفني ذلك تفريق ما جمع وتمزيق ما طبع ، فاني ضعيف الثقة بما أعمل . فلما مضيت في الكتاب تبين لي أن ضعف الثقة في الصديق لم يأته من اشتباه الحق ولا من التباس الصواب ، وإنما أتاه من اتساع المسافة في نفسه بين ما يريد وبين ما يستطيع ، ومن شدة الاختلاف في رأيه بين ما يجب وبين ما يكون .

وإذا كان صديقي في هذا الكتاب بالذات قد [illegible] في كتابته ، كثير التشكك في افادته ، فهو يقول في المقدمة : « لم أتهيب شيئاً من تأليف كما تهيبت من اخراج هذا الكتاب ؛ فان كل ما أخرجته كان غيري المعروض وأنا العارض ، أو غيري الموصوف وأنا الواصف . أما في هذا الكتاب فأنا العارض والمعروض والواصف والموصوف . والعين لا ترى نفسها إلا بمرآة . والشيء إذا زاد قربه صعبت رؤيته . والنفس لا ترى شخصها إلا من قول عدو أو صديق ، أو بمحاولة التجريد وتوزيعها على شخصيتين : ناظرة ومنظورة ، وحاكمة ومحكومة ، وما أشق ذلك وأضناه ! » ... « وترددت أيضا في نشره : ما للناس و« حياتي » ؟ لست بالسياسي العظيم ، ولا ذي المنصب الخطير ، الذي إذا نشر مذكراته ، أو ترجم لحياته ، أبان عن غوامض لم تعرف ، وخبآت لم تظهر ، فجلى الحق وأكمل التاريخ ؛ ولا أنا بالمقاص الذي استكشف مجهولا من حقائق العلم فحاول وصفه وأضاف ثروة إلى العلم ، أو مجهولا من المواطف كالحب والبطولة أو نحوهما فجلاها وزاد بعمله في ثروة الأدب وتاريخ الفن ؛ ولا أنا بالزعيم المصلح المجاهد ، ناضل وحارب ، وانتصر وانهزم ، وقاوم الكبراء والأمراء ، أو الشعوب والجماهير ، فرضوا عنه أحيانا ، وغضبوا عليه أحيانا ، وسعد وشقي ، وعذب وأكرم ، فهو يروي أحداثه لتكون عبرة ، وينشر مذكراته لتكون درساً . لست بشيء من ذلك ولا قريب من ذلك ، فعلام أنشر حياتي ؟ »

ومع ذلك استطاع أحمد أمين بوزانة عقله ورزانة خلقه أن يقول لنا أصرح ما يقال ، وأن يصدر الحكم أعدل ما يصدر ؛ كما استطاع بقوة شعوره وصدق تصويره أن يحقق الفائدة للقارىء ، فجعل من تاريخ حياته تاريخ حياة لمصر في الربع الأخير من القرن الماضي ، والنصف الأول من القرن الحاضر ، فوصف عادات كادت تزول ، وسجل حوادث كادت تنسى ، وصور وجوها كادت تغيب ؛ فالحال الاقتصادية بسخرتها وقسوتها وثقل ضرائبها وسوء جبايتها في قرية (سمخراط) بالبحيرة ؛ كانت هي الحال في كل قرية من قرى الأقاليم . والحال الاجتماعية بطبقاتها وعاداتها واعتقاداتها في (حارة العبادية) بالمشية ، كانت هي الحال في كل حارة من حارات القاهرة . والحال الشخصية بتربيتها ونفسيتها وعقليتها في نفسه وأهله وصحبه وجيرته ، كانت هي الحال في كل فرد من أفراد الشعب . وإن في تصويره البيت والسقاء والمحدث والكتاب والأزهر ، وفي وصفه لأبويه وأخويه ، وصديقيه عبد الحكيم محمد وعلي فوزي ، وأستاذيه عاطف بركات ومس بور ، لنماذج من البيان المطبوع الذي يشرق بنور العقل ويفيض بروح العاطفة . وإن من أجمل ما في الكتاب تلك البراعات الذهنية التي تبدهك بين الصفحة والصفحة في تحليل نفس ، أو تعليل حادث ، أو تأثير شخص في شخص ، أو موازنة حالة بحالة . على أن مثل « حياتي » في انبثاقها من البيت والحارة والكتاب والأزهر ، وفي تفرقها بعد ذلك في نواحي العمل ووجوه الأرض وأشتات الأمر ، كمثل الدوحة العظيمة ، تكون عند الجذع قوية غليظة مكتنزة ، تضطرب بالحياة وتزخر بالخصب وتستمد غذاءها من جذورها الضاربة في جوف الثرى ؛ فاذا تفرعت على ساقها انتشرت الأغصان وتشعبت الأفنان فتوزعت الحياة ، وتقسم الزى ، وخفت الحركة ، ولكن فيها مع ذلك الجمال والظلال والزهر والثمر ؛ فالقسم الأول من « حياتي » كأصل الدوحة عميق وثيق مكتنز لاستمداده من أعماق النفس ؛ والقسم الآخر كفروعها هش الأفنان منبسط الجوانب لامتداده في آفاق الطبيعة .

والكتاب بعد ذلك قد كشف عن سر من أسرار الصناعة في كاتبه . ذلك سر القصة . والنفس الفنانة عميقة كالكون ، سحيقة كالأبد ، فلا تنتهي أسرارها حتى ينتهي المجهول ، ولا تنقضي عجائبها حتى تنقضي الحياة !

احمد حسن الزيات

صور من الحياة

قلوب من حجر

للأستاذ كامل محمود حبيب

— ٣ —

هبت نسمات الربيع تدفعني إلى الماضي الجميل ، فحن الفؤاد إلى مراتع الطفولة، وصبا القلب إلى ملاهي الصبا، ونزعت الروح إلى مهاد الذكرى ، هناك في القرية حيث الربيع الفض يمد سحره الرفاف، فينشر على الثرى بحراً سندسي الحواشي، مرح الأعطاف ، يبسم لهبات النسيم في رقة، ويصافحها في لين، ويعانقها في شوق ، حيث الغدير العذب ينساب إلى غير غاية ، يترنم بأناشيد الهوى ويشدو بألحان الغرام ، وهو يضم بين حبات قلبه صفيه الحبيب : شعاع الشمس الذهبي الذي يدفىء حناياه بزفرات الشوق والحنين ؛ حيث في شجرة التوت يتهادى ليهدهد من أنات الثور المعنى ونواح الساقية الشجي ؛ حيث أهلي الذين أتشوف إليهم برغم أن شواغل المال قد جرفتهم فجف فيهم الحنان وذوى المعطف ونضب الصفاء ؛ حيث الفلاح الذي يئن تحت وقرين من ضنى العمل ورقة الحال ...

وجذبتني نوازع النفس إلى القرية فطرت إليها أستجم من عناء وأتدع من كلال وأهدأ من صخب ، فخلعت أول شيء لباس المدينة وهو ضيق يرهق الجسم ويحبس الدم ويخنق الحركة ، ثم انطلقت وحدي إلى مكان ذي ظل وهدوء ، على أجد نفسي وخواطري معاً .

وتكبكب الفلاحون يحيون الضيف الذي حل في ديارهم على حين فجأة بعد سنوات من نأي كادت تمحو ورته من الذهن ، وتمسح سماته من الخاطر ، وتطوي تاريخه من الوعي ... الضيف الذي نفض عنه — في لمحة واحدة — أثر المدينة فلبس ثوب الفلاح في غير تمنع، واستاق على ثرى أرضه في غير تحفظ، وأكل طعامه في غير تقزز ، وشرب شرابه في تكمش . ومستني روعة المكان وروعة الاخلاص المتدفق من أغوار النفوس الطيبة الزكية التي ترفل في دثارين من الرضا والقناعة ؛ فأخذت معهم في حديث راح يتشقق فنوناً ، وإن فيه العذوبة والذكرى . ومضت ساعة من زمان وأنا أرقب رجلا منهم نفر عن الجماعة فانتحى ناحية فما شارك في الحديث ولا هش للمجلس ، ولكنه ظل في منأى عنا منطوياً على نفسه وعليه آثار الأسى وفيه علامات الحزن ؛ وتراءى لي كأنه يحمل على عاتقه أعباء السنين العجاف، وراعني أن ينقبض السامر والا كشف عن طوايا نفسه أو انفذ إلى أعماق قلبه ، وإني لأعرفه فتى طروب النفس خفيف الحركة قوي العضل . . أعرفه منذ أن كان أبي رب هذه الأرض وصاحب هذا الغيط وسيد هذا الناس ، ومنذ أن كنت أنا صبيا أرفل في عبث الطفولة وحماقة الصبا .

وناديته فأبى وجاء يتوكأ على عصا وقد حطمته السنون فبدا هيكلا يتداعى من وهن وضعف ، ثم سألته « مالك لا تنغمر في الحديث ولا تندفع في السمر ولا تهتز للطرب ؟ »

فقال « يابني ! إن أبناء المدينة لا يفهمون لغة الريف ولا يستمرئون شكوى المظلوم »

قلت « وي كأنك نسيت أنني ابن الريف وربيبه ، لم تصرفني عنه إلا نوازع العيش ولا دعتني عنه إلا دواعي الوظيفة ! »

قال « ولكنك جئت ترفه عن نفسك باللذة الهادئة ، وتلتمس السكون والراحة من صخب المدينة ، فما كان لي أن أعكر صفو المتعة بشوائب الشكوى، ولا أن أدنس سعادة المرح بأنات الأسى »

قلت « لا بأس عليك ! هات حديثك عسى أن أجد لك فرجة من ضيق أو برءاً من سقام »

فقال في صوت شاع في نبراته الأسى وأفعم رناته الحزن : « أما قصتي فهي قصة الضعف تعصف به القوة العارمة ، قصة الفقر يعبث به الغنى الجارف .

« لعلك ، يابني ، لا تذكر يوم أن تركت غيط أبيك إلى ضيعة سعادة البك ! لقد قلت وإنه ليتراءى لي أنني أفر من ضيق إلى سعة ومن شظف إلى خفض . وكنت — إذ ذاك — فتى في الطمع والطموح في وقت معاً ونسيت أن الثراء العريض لا يرقق القلوب القاسية ، وأن النعمة السابغة لا تداوي الأنفس الشح ، وأن المال

الوفير لايلين العقول الجافة ؛ ولـكننى طرت إلى عزبة البك

«وتقبلنى سعادة البك ورجاله بقبول حسن ، وتقبلت أنا العمل بشوق وأمل ، وانطوت الأيام فاذا أنا أقرب الناس إلى قلب البك ، يسبغ على من نعمته ويحبونى بفضل رعايته ، ثم يقيمنى رئيساً على عماله

« ووجدت فى عملى الجديد معانى السيطرة والسلطان ، وأنا حينذاك — رجل صقلتنى التجارب وشذبتنى الحياة ، فرحت أبذل غاية الجهد وأستنفد وسع الطاقة لأكون اهلا لثقة البك ، وعشت بين العمال أخاً وصديقاً وصاحباً ، وعشت فى النمط أميناً ومخلصاً ، وعشت فى دار سعادة البك خادماً وعبداً ؛ لا أتطاول إلى طمع ولا أتشوف إلى جشع ، ورضيت ورضى أهلى ، وأحسن أولادى بالخفض والسعة ، فاطمأنت نفسى وسكنت جأشتى واستقامت خواطرى ، ولـكن الحوادث لم تنم ...

« وعلى حين غفلة أصاب ابنى الأكبر داء عضال ، فتفزع قلبى واضطربت حياتى لأنه عونى وساعدى ولأنه ابنى ...

«وطرت إلى الطبيب أستشيره وأستعينه على أمرى ، وتحدث الطبيب حديثاً ثلج به صدرى وتطامنت له لوعتى ، ثم بدأ يطب لمرض المريض وأنا أدفع الأجر من عرق الجبين وأجزل العطاء من عناء العمل

« ليت شعرى هل كان الطبيب يسخر من غفلتى ويهزأ من جهلى حين راح يمدنى فى الأمل ويفسح لى فى الرجاء ليخدعنى عن مالى ويستلبنى من كد العمر . آه ، يابنى ، لقد ظل ابنى بين يدى الطبيب شهوراً لا يجد الراحة ولا الشفاء والطبيب يمكر بى ليستنفد طاقتى حتى لصقت يدى بالتراب ولم يبق فى دارى سوى صابة توشك أن تنضب ، ولـكن الأمل ... ومرت الأيام فاذا أنا لا أجد قوت يومى ، وإذا الطبيب ينذرنى فى جفاء وغلظة ... ينذرنى بأن يقذف ابنى إلى عرض الشارع إن أنا لم أشبع نهمه أو أرد غلته

« ياالهى ! ما أغلظ أكباد قوم سيطر عليهم سعار المال فصرفهم عن معانى الانسانية السامية ودفعهم عن رقة الرحمة والشفقة !

« وانطلقت إلى سعادة البك — سيدى — أقص قصة ابنى المريض وهو يقاسى برحاء المرض عند الطبيب ، وأنا أعانى من الفاقه هنا بين يديه ، وطلبت إليه أن يعينى ببعض ماله — بخمسة جنيهات .

«وحدجنى البك بنظرات قاسية ثائرة ثم قال « وإذن فقد شغلك ابنك عن عملى شهورا . لا بأس فهذا أمر أستطيع أن أغفره لك . أما الجنيهات ، فمن ذا الذى أوهمك بأن دارى هى بعض التكايا فتطمع أن تجد فيها مالا غير أجرك الذى تستحق ».

«وانكشف لى قلب سعادة البك عن حجر لا ينبض برحمة ولا يخفق بشفقة فعلت له فى توسل « ولـكننى خادمك منذ زمان وهذا ابنى بين يدى طبيب غلظ الـكبد قاسى الطبع خدعنى عن كل مالى وهو الان يوشك أن يقذف به مريضا إلى عرض الشارع لأننى لا أجد ثمن العلاج ولا ثمن الدواء » .

فقال فى قسوة « لا عجب أن تمن على بعمل نلت أجره مرتين . أما الطبيب ، أما ابنك فلا شأن لى بهما ، فاخرج وإلا ... »

« وخرجت من لدن سعادة البك وأنا أذرف عبارات الأسى واليأس وقد ضاقت على نفسى وضاقت على الأرض بما رحبت ، وحدثتنى شجونى بأن ألقى بنفسى فى أليم لأخلص من حياة لا أحس فيها إلا قلوبا قدت من حجر فما أمسكنى إلا ابنى المريض الذى يترجى عودتى »

« وأنفت نفسى — منذ تلك الساعة — أن أعيش فى كنف البك الذى تكشف لى عن وحش مفترس يتأنق فى مسلاخ إنسان ، وترامى الخبر إلى البك فأقام حارسا على دارى ، ثم طردنى وحبس قوتى وقوت عيالى فما استطعت أن أحمل معى الذرة ولا القمح ... ولا العيش . وتركت الدار التى كنت أسكن فى عزبة البك ... تركتها يوم أن مات ابنى »

« واحر كبدى ! لقد عشت ساعة على قارعة الطريق أذرف لوعة فنى وحرقة فؤادى أمام جثة ابنى المسجاة فى أسمال لأن سعادة البك رفض أن ندخله فى داره ، وأبى فى قسوة أن يمد لى يده فى ساعة المسرة ، ولـكن عماله أعانونى فى الشدة وساعدونى فى الضيق .

« ولا عجب — يا بنى — فان الانسانية حين تتهاوى تسفل فتنضم فتنحط إلى أوضع مراتب الحيوانية ! »

كامل محمود حبيب

الأخـــلاق الديكارتية

بمناسبة مرور ٣٠٠ سنة
على وفاة الفيلسوف ديكارت

للاستاذ محمد محمود زيتون

ديكارت فيلسوف ، حقله من الفلسفة رحب الجوانب مترامي الأطراف ، وله من الإلمام بالتراث الفلسفي القديم نصيب موفور . فقد أحاط خبرا بسابقيه إحاطة تختلف سعة وضيقا ، ومع هذا كله فله مذهبه الخاص به في كل ضرب من ضروب الفلسفة . إذ الفيلسوف الحق إنما تخلد آثاره لا بما فهم وهضم من تراث ماضيه فحسب، بل بما أضاف من جهده قيمته إلى هذا الماضي إضافة من شأنها أن تجعل المذهب الفلسفي كالكائن الحي له صفات النمو والتطور

هكذا كان ديكارت ، فإن له لآثاره وابتكاره اللذين تميزبهما ولاسيما فيما نحن بصدده أي الأخلاق ولا بأس من عرض سريع للتعرف على ميزة الأخلاق عند القـــدامى قبل استيضاح معالم الأخلاق عند ديكارت .

نعم كان علم الأخلاق عند القدامى علما عمليا يفترض إحاطة تامة بشتى ضروب المعرفة من الطبيعة وما وراءها ، والسيكولوجيا وغيرها ، فسقراط يقول « اعرف نفسك بنفسك » ويشـــدد أفلاطون « العدالة » النفسية ليبنى عليها العدالة السياسية ، ويقيم أرسطوبنيان أخلاقه على علم النفس ، ولا يشذ عن أستاذه في نشدان « الفضيلة التي ليست شيئا آخر غير الوسط العدل بين طرفين» فهم ثلاثتهم يقصدون إلى « الخير » كما عند سقراط ، أو « السعادة » كما عند أفلاطون ، أو « الحكمة » عند أرسطو .

وعلى هذه الوثيرة سار التابعون لفلاسفة اليونان والآخذون عنهم من رواقيين وغير رواقيين وامتد الشعاع من الرواقية حتى وصل إلى ديكارت فتلمسه ثم تأثر به سلبا وإيجابا .

وإذ أحس ديكارت بضرورة الحاجة إلى إتمام صرحه الفلسفي كان لا بد له من أن يصنف العلوم تصنيفا هو بمثابة الهيكل أضلاعه مرتبة على جوانبه، فقد ارتأى أن العلم شجرة جذورها الميتافيزيقا، وجذعها الفيزيقا ، وفروعها الطب والميكانيكا والأخلاق ، وهو آخر مراتب الحكمة والعلوم لأنه يتطلب البحث والإحاطة التامة بكل ضروب المعرفة ، فهو لذلك أعقد العلوم ، أما وقد جد في الطبيعيات والميكانيكا والطب ولم ينته بعد من هذين الأخيرين فقد آثر ديكارت الانتظار .

ومن أجل تجديد المسكن الذي ارتأى وجوب القيام فيه ، وجب قبل كل شيء أن يأوي إلى أخلاق موقوتة Morale provisoire هي بمثابة المسكن المؤقت حتى يتم له هدم ما أراد هدمه ، وبناء ما أراد بناءه ، فماش ديكارت وما ترك لنا إلا هذا المسكن الموقوت الذي سكن إليه ربثما يتم الأس ، فلم يتح له ذلك . ومع هـذا فإن هذه الأخلاق تستحق العناية لإمكان الاستدلال منها على كثير من جوانب الحياة التي اكتنفت ديكارت في شخصه ومجتمعه معا.

وثمت مسألة لها قيمتها وهي الخاصة بالعلاقة بين الفلسفة والحكمة من ناحية ، والأخلاق والسعادة من ناحية أخرى. أما الحكمة فإنها مرتبطة بالفلسفة ارتباطا وثيقا . يقول في كتابه عن « القواعد » وكلمة فلسفة تعني دراسة الحكمة . وليست العلوم بأسرها إلا الحكمة الإنسانية التي تبقى هي هي دائما» ، والحكمة — فضلا عن تضمنها للحكمة العملية — ، فإنها المعرفة التامة بكل الأشياء التي يتسنى للانسان المعرفة بها . وإذا كانت الفلسفة هي دراسة الحكمة فهل اللفظان مترادفان ؟ كلا . فالفلسفة هي « الحكمة » من حيث هي « عملية » ، والأخلاق هي آخر درجة وأبعدها في الحكمة ، كما يقول ديكارت في مقدمة كتابه « المبادىء » .

وبين الأخلاق وعلم النفس صلة وثيقة ، فلنتعرف على أحوال النفس وأحوال البدن ثم على ما بينهما من تفاعل . وكل ذلك نتلمسه بوضوح في رسائل ديكارت إلى الملـــكة كرستين Christine والأميرة إليزابث Elisabeth فضلا عن « بحثه في الانفعالات »، وفي هذه الينابيع الثلاثة عرف ديكارت لب الأخلاق من حيث هي السلوك الإنساني على أساس قوي من السلوك النفساني .

وعند ديكارت ألفاظ أخلاقية هي : الكمال والخير الأسمى والسعادة والنعيم المقيم واللذة والنظر والعمـــل والحرية والفضيلة والمعرفة والإرادة . ودراسة هذه الألفاظ ومدلولاتها عنده والصلة

بينها وبين بعضها كل ذلك إدراك للعقد التى تجمع بين أطراف الأخلاق الديكارتية :

يعرف ديكارت الخير الأسمى بالكمال إذ الخير الأسمى هو الحصول على كل الكمال الذى كل فعل خلق خليق به [١] والخير الأسمى لا يتضمن أى وسيلة للسعادة ، ولذلك هما متباينان أشد ما يكون التباين ، ولا يتردد ديكارت لحظة فى الفصل بين الخير الأسمى وبين الله فيقول « من الممكن اعتبار طيبة كل شىء فى ذاتها بدون ربطها بغيرها مما يكون معناه واضحا ، لدرجة أن الله هو الخير الأسمى لأنه أكمل الموجودات حيث لا شبيه له فى هذا » ثم هو كذلك يبعد معنى الخير الأسمى عن المعنى الأفلاطونى أى المثل الأعلى والمعيار الثابت للعمل الإنسانى ... وعندما نراعى فكرة الخير لاستخدام قاعدة لأعمالنا فإنا نأخذها على أنها الكمال التام » (٢) .

ويفرق أيضا بين السعادة والنعيم المقيم ، فالسعادة حظ سعيد قد لا يكون من فعلنا ، أما النعيم المقيم فهو نتيجة الحكمة ، وهو يقوم على السرور . وليست المسرات على درجة واحدة من القيمة ، فالسرور كعلاقة ونتيجة للكمال يجب تقديره بحسب ماله من سبب . وبحسب هذا تعدل مسرات النفس وحدها جميع مسرات الإنسان المركب من جسم وروح لأن مسرات الانفعالات معرضة للظهور مقدما أعظم مما سوف لا تؤول إليه . ولهذا فهى تخدعنا . والمسرات عامة تعطينا من الارتياح أكثر من حقيقتها أى هى متعلقة بالكمال الحقيقى ، و « لنعرف تماما كيف يمكن لكل شىء أن يعين على ارتياحنا يجب اعتبار الأسباب التى تنتجها » (٣)

هناك نوعان من اللذة : فمنها ما يتعلق بالنفس وحدها ، ومنها ما يتعلق بالإنسان أى النفس من حيث اتصالها بالبدن ، وهذه الأخيرة تظهر غالبا أكثر مما هى عليه ، وقبل حيازتها يكون الأمل فى جميع السرور وجميع الأخطاء فى الحياة . وبمقتضى العقل يجب أن تقاس كل لذة بمقدار الكمال الذى ينتجها . وإنه لكذلك حين نقيس تلك التى أسبابها معروفة لدينا معرفة واضحة . وغالبا ما يجعلنا الانفعال نعتقد بعض الأشياء الحسنة والمرغوبة . وإن لم تكن هى كذلك . على أننا إذا أصابنا كثير من الألم وفقدنا فرصة الحصول على خيرات أكثر تحققا فإن المتعة تعرفنا الاخطاء . ومن هنا تأتى العوامل الداخلية كالحسرة والندم ، ولهذا كانت مهمة العقل امتحان القيمة الصحيحة لجميع الخيرات التى يبدو أن الحصول عليها يعتمد بشكل ما على تصرفنا لكيلا — نحتاج أبدا إلى استعمال جميع غاياتنا إلى محاولة أن نتابع تلك المرغوب فيها أكثر من غيرها

فالنعيم المقيم يؤدى إلى اللذة ، ولمعالجتها يجب معرفة كيف تتميز هذه اللذات ، ولما كنا لا نستطيع القول ضمنا بأن النعيم المقيم ليس هو الخير الأسمى فانه ليس إلا نتيجة له (١) والنعيم المقيم بعبارة أخرى هو الاتجاه الذى يحتم علينا أن نتبع الخير الأسمى الذى هو الوسيلة لهذه الغاية العليا . وهكذا ترى كيف يتميز ويرتبط كل من السعادة والخير الأسمى .

كيف نعرف الخير الأسمى أو مثال الكمال الذى نتوصل إليه إليه باتباع اللذة ؟ يفرق ديكارت بين المثال الغامض والعام عند الكمال الانسانى . وهذا ما يجب على كل فرد أن يفترضه . أى يفترض المثال الذى يوافق طبيعته ، وفضلا عن هذا فان الخير الواجب اتباعه ليس وحده خير الكل وإنما هو الخير المتعلق بالفرد وحده .

ولما كان من الضرورى أن نفرق بين الخيرات الخارجية وبين الخيرات التى تتعلق بنا ، فان كل الأشياء المتساوية عند الغير ، والخيرات الخارجية تضيف شيئا إلى الكمال والسعادة الدائمة . ولما كانت الخيرات الخارجية لا تدخل تحت نطاقنا فـ — وجب أن تركز رغائبنا فى الخيرات الخاصة بنا . والذى يخص المرء أولا وبالذات هو إرادته . والكمال الذى يجب أن نبحث عنه هو كمال الإرادة على نحو ما ينتهى الخير الأسمى الى الفضيلة فيتحد معها .

وإذ نتزع بالارادة نحو الكمال نكون قد فعلنا كل ما نستطيع فعله لمعالجة الخير الأسمى الذى قد حصلنا عليه فعلا حينما أدركنا معه كل ما يتفق مع طبيعتنا أى حينما نكون قد استحوذنا على

١ — من خطابه إلى الملكة كرستين فى ٢٠ نوفمبر سنة ١٦٤٧
٢ — من خطابه إلى الأميرة اليزابث فى يناير سنة ١٦٤٦
٣ — من خطابه إلى اليزابث فى أول سبتمبر سنة ١٦٤٥

(١) إلى اليزابث فى ١٨ أغسطس سنة ١٦٤٥

الخير الأسمى الحقيقي وحده من الخير الذى هو ملك لنا .

أما الفضيلة فهى مجهود الارادة . وهي ليست استعدادا طبيعيا ، ولا وظيفة من وظائف الذهن ويهتم ديكارت بالنية فهو يخرجها حتى تقرب أحيانا من الشخصية الاخلاقية ، فالنية الحسنة الأساسية هى نية معرفة الخير. وتمت فضيلة هى أن يتفق الشخص والموضوع .

والعقل عند ديكارت هو النفس المتعقلة ، والنفس مرآة عليها تنطبع الأفكار والحقائق بنور الله الإلهى ويعتقد أن الانفعال غير مستقل عن العمل لا فى النفس ولا فى العالم الجسمانى، ولا يمكن أن يفهم أحدهما بدون الآخر ، فانهما اسمان مختلفان لحقيقة واحدة ينظر إليها من وجهين . والعقل ليس وحده كل النفس ، ولكنه مزدوج بالارادة ، وديكارت يستخرج الحقيقة واليقين من العقل والارادة معا .

وديكارت لا يقيم للحرية الاعتباطية وزنا لأنها لا توجد ، وإن وجدت فانها أحط درجة للحرية (١) على أن للحرية تعريفا ورد فى « الرسائل السادسة » وهو « أنها ملكة وضعية للجنوح إلى أمر ، واجتناب آخر ، أى اتباعه وتفاديه ، وبعبارة أخرى الجزم على أمر أو رفضه . وإذن فالحرية هى ملكة الاختيار بمعنى أننا إما أن نقبل الشىء أو نرفض ولما كانت الارادة والحرية شيئا واحدا فانهما يعتمدان على الأفكار « فنحن لا نريد شيئا لا نعلم عنه شيئا » (٢) ، وشىء عام جدا هو أن العقل محدود ، أما الارادة فلا حدود لها (٣) فالعقل لا يتأمل إلا جزاء فقط من الحقيقة ، أما الارادة فانها تتعلق بكل شىء سواء فى مظاهرها أم فى حقائقها .

ثم يتسامى ديكارت إلى أفق الميتافيزيقا فيفرق بين الحرية الانسانية والحرية الالهية ، فالأولى تبحث عن الحقيقة التى خلقتها الثانية . والارادة والمعرفة عند الله شىء واحد ، وعند الانسان : الارادة مقدرة مطلقة دون المعرفة .

والايمان ـ عند ديكارت وعند معظم معاصريه ـ يكفى لتوجيه الحياة ، وهو يقول « بما أن ارادتنا التى لا تهتم إلا باتباع أمر أو عدم اتباعه حسب ما يصوره لنا العقل حسنا أم سيئا ، فانه ليكفى أن نحسن الحكم لنحسن العمل . وأن نحكم أحسن ما نستطيع أى للحصول على جميع الفضائل » (٤)

هذا هو موجز التخلق عند ديكارت ، فاجادة الحكم هو إجادة العمل ، وبما أن الوضوح هو القاعدة الأولى لأحكامنا ، وأن الوضوح علامة الحق ، وأن الخير هو الحق ، فكذلك أعمالنا لها ما الزمناها من القواعد، فليس هناك حقيقة علمية تنظم وابط أعمالنا ، وإنما الحقيقة واحدة نظرا وعملا ، فالارادة الحرة تحددها أفكارنا التى ليست نظرية وعملية، هى شىء واحد ولا فضل لاحداهما على الأخرى . إذ الأولى قيمتها فى العظمة ، والأخرى قيمتها فى الكمال كما يقول ملبرانش .

ومن أجل هذه الطرافة التى أتى بها ديكارت بشأن حرية الارادة استحق أن يسمى « فيلسوف الحرية » . وكلمة الحرية هنا وعند ديكارت ذات معنى حر إذ تمتد من النفس الانسانية حتى تنتهى إلى الحرية السياسية .

وبهذا تكون الأخلاق الديكارتية ترجمة لنظريته فى المعرفة ، إذ يرى ـ وقد سبقه سقراط ـ أن الجهل والرذيلة شىء واحد . كما أن العلم والفضيلة شىء واحد ، فرؤية الحق بوضوح هى إرادة الخير مباشرة ، والرذيلة خطأ ، والخطأ ناشىء عن معميات وأوهام وأضاليل ، فنحن لا نرى الشر بوضوح ، والشر الذى نرتكبه يتمثل دائما فى صورة الخير « فاذا نحن رأيناه واضحا كان محالا أن نأثم حين رأيناه على ذلك النحو ، ولذا قيل الخطأ جهل ، وكل خطأ يرجع إلى آرائنا ونزعاتنا ورغباتنا . ومهما يكن من شىء فنحن لا نقدر إلا على أفكارنا » .

وتتضح بذلك خصائص الأخلاق الديكارتية وتتركز فى كونها « معرفة عاملة » فضلا عن أنها علم معيارى لأنه يضيف الحرية ومثالا واضحا للواقع ، بل هى علم للنظام المثالى .

والتخلق هو أن كل موجود وكل فعل يجب ان يضع فى نصابه ، والوظيفة الحقيقية للارادة هى أن تتوسل بالنية إلى هذا

---

(١) التأملات الأولى
(٢) الرسائل الثامنة
(٣) التأملات الأولى
٣٤ ، ٣٤
(٤) المقال عن المنهج

النظام ، ومعرفة هذا النظام هي إذن ذات الشأن العظيم ، فالرغبة في معرفة النظام ، ثم الرغبة في اتباعه هو أساس التخلق عند ديكارت ، وإذن فالبرجماتزم على أوضح صورة متحقق في الأخلاق الديكارتية العملية .

ويعنى ديكارت بالانفعالات بغية ترويض النفس تبعا لمعرفة هذه الانفعالات . وبذلك نستفيد منها في غرس عادة جديدة ونزع أخرى ولا سيما أن النفس الانسانية هي القابلة للتعود والتخلق .

والانفعالات بطبيعتها توجه الارادة قبل العقل لكسب معارف جديدة (الدهشة) ، والبحث فيما هو نافع لنا (الحب) والهرب مما هو غريب عنا (الكره) ، ولكن هذه الاتجاهات تستمد أيضا من الأحكام على الخير والشر ، وهذه الأحكام شأنها في ذلك شأن الانفعالات التي تبقى في حدودها الطبيعية ، وإنما هي أحكام حقة ، ولكن يندر أن تكون كذلك .

وبعد ، فهل من سبيل إلى التعرف على سلوك ديكارت ، ونحن نعلم أن مذهب الفيلسوف قطعة من حياته ؟ الحق أن قراء ديكارت يختلفون كثيرا على نص واحد يكتبه ، فهو في المقال عن المنهج بصدد الحديث عن القسم الأول يقول « وأمل أن يكون هذا الكتاب نافعا للبعض دون أن يضر أحدا ، وأن يرضي عني الجميع لصراحتي » . هذه الجملة البسيطة ، تحمل من اللفتات الضاحكة اللاذعة ما لا يستطيع قارىء أن يمر به مر الكرام . إذ هو يتواضع تواضعا جما في عرضه لآرائه على الناس ، وهو إذ يقصد إلى أن يتبع الناس جميعا هذا المنهج الذي انتهجه نراه يتخفى وراء هذه الغاية فيتخذ من تواضعه ما يشف عن رغبته هذه . وهو أيضا يعبر عن نفسه بأنه صريح . والواقع أن هذه ليست صراحة ، إنما هي تقنيع للفكرة التي لا يريد التصريح بها حذر الوشاة والحراصين .

وديكارت بهذا يقوم — كما يقول كويريه بدور Koyré(١) « المناورة الحـ راطية » ومصداق ذلك قوله « ... لم اكتسب من اجتهادي في التعليم الا اني جهالتي شيئا فشيئا »(٢) ولقد سئل سقراط عما يعرف فقال « كل ما أعرف هو أنني لا أعرف شيئا » .

ثم هو إذ يعرض للفلسفة يتناولها بالتجريح في لباقة وحرص لأنها « تعطينا وسيلة ... لكسب الاعجاب ممن هم أقل منا علماً » وهو يهكم بالسفسطائيين المعاصرين له .

ويعرض ديكارت بفساد النظم السياسية المعاصرة فيقول « أما ما في نظم الامم من عيوب — إن كان في نظمها عيوب ، والخلاف بينهـا كاف لاثبات كثير من العيوب في كثير منها — فإن التطبيق قد لطفها كثيرا بلا ريب ، بل هو جنب من عيوبها ، وتلافى منها رويدا رويدا ما لم يكن مستطاعا بالحكمة . ثم إن تلك العيوب تكاد تحتمل دائما أكثر مما يحتمل تغييرها كالطرق الملتوية بين الجبال تتمهد شيئا فشيئا لكثرة التردد عليها . وخير للسائل أن يذهب في طريق أكثر استقامة ، متسلقا فوق الصخور منحدرا إلى بطون الوهاد »(١)

وفي هذا من الغمز والتعريض ما لو شرح لفقد قيمته التعبيرية والتفكيرية معا . وهو لهذا يعد صاحب « ثورة سياسية » لا « ثورة فكرية » فحسب ، كما يرى بعض المؤرخين اعتمادا على افتتاحية المقال عن المنهج . فإن ديكارت — في نظري — كفلاسفة اليونان إذ نشدوا الاصلاح الاجتماعي فبدأوا بتغيير عقلية المجتمع على أسس فلسفية ؛ وكذلك كان ديكارت .

واختلف الناس في أمر هذا الثائر الجبار الذي اتخذ شعاره « عاش سعيدا من أحسن الاختفاء » ، ولم يحاول أحدهم أن يعذر ديكارت في مناوراته الفكرية .

ومع ذلك فإنه إذ ينشد الاصلاح يرى أن « من المفيد أن نعرف شيئا عن أخلاق الأمم المختلفة حتى يكون حكمنا على أخلاقنا أصح ، وحتى لا نظن أن كل ما خالف عاداتنا هو سخرية ، ونخالف العقل كما هو دأب الذين لم يروا شيئا » الذين لم تتجاوز معارفهم حدود بلادهم . لهذا ساح ديكارت حول « الكتاب الأكبر » واستفاد من أسفاره ما حقق له غرضه .

وما كان ديكارت ليعشق الجاه ، بل لقد بغض إليه — على

---

١ — المقال عن المنهج: القسم الثاني

La méthode 2 Trois lexons sur Descartes

احتكاك الحضارات

للاستاذ محمد محمد علي

منذ ظهر الإنسان على وجه الأرض وهو دائم الحركة لا يقر له قرار ، إذ دأب على الهجرة والارتحال ، مما أدى إلى انتشار الأجناس البشرية وتعميرهم مختلف بقاع هذا الكوكب . وهو من الحيوانات القلقة ولكن ليس تقليديه اليا . فإذا ما انتقل من بيئته إلى أخرى فإنه لا محالة ناقل معه مظاهر حضارته وتقاليده . وكما يحدث تزاوج بين الأجناس واختلاط بين العناصر ، كذلك يحدث امتزاج بين الثقافات واحتكاك بين الحضارات ، نتيجة الأخذ والعطاء ، وتبادل الآراء . وحركة الإنسان هذه لها فائدة مشتركة ؛ فانتقاله إلى بيئة جديدة يمكن هذه البيئة من الاستفادة منه ، كما يستفيد هو الآخر منها ، إذ ينقل إلى موطنه بعض مظاهر الحضارة الجديدة .

ولقد تقدمت حركة الإنسان على مر الزمن ، فتدرجت من مجرد هجرات سلمية إلى غزوات حربية وفتوحات استعمارية على أشكال شتى وألوان متباينة . وتبع هذا التطور في الحركات : تطور في الاحتكاك الذي ساعد على شدته وتعقده في الأزمنة الحديثة سهولة المواصلات وظهور المخترعات وانتشار الصحافة وغير ذلك . فلم تعد هناك عزلة بين الحضارات .

والكلام في هذا الموضوع ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

الطرق التي يتم بها احتكاك الحضارات ، ثم النتائج التي تنجم عن ذلك ، وأخيرا أمثلة من اتصال العرب بالشعوب الأخرى بعد انتشار الإسلام ، واحتكاك الأوربيين بالجماعات البدائية : الإسكيمو في الشمال وزنوج البانتو في الجنوب ، وأخيرا لمحة عن الذي حدث بين الشرق والغرب في الماضي والحاضر .

وسائل الاحتكاك

ليس احتكاك الحضارات أمرا مقصورا على الماضي ، ولكنه ظاهرة مستمرة على مر العصور (١) . ويرى الأستاذ دنكن (٢) أن الاحتكاك بنوعين من الطرق : طرق منظمة

1. Rivers : Psych logy and Ethnology : 1926. P, 300
2. Duncan : Race and population problem. 1929, p. 157

ما أوتي من بسطة في العيش — ولم يكن يحفل بمنصب يناله ، ولا بجمال زائف غير جمال الحقيقة ؛ حتى لقد آثرها على جمال التي هوى بيتها . ولم يغفل ديكارت الصدى المرالذي ترده مأساة جاليليو، فآثر الحيطة في كل ما يقول ويكتب ، ولكن ألم يذكر حقا غير الأخلاق الموقوتة التي ذكرها في المنهج لأنه لم يكن قد انتهى بعد من إقامة هيكل العلوم ؟

الحق أن ديكارت اتخذ من الأخلاق الموقوتة سكنا موقوتا حتى يتم له هدم القديم لبناء الجديد . فهل تم له الهدم والبناء . وإذا لم يكن ذلك فكيف كتب هذه البحوث المستفيضة في الأخلاق ، وهو لم ينته بعد من العلوم التي افترض وجودها قبل الأخلاق ؟

الواقع أن ديكارت اضطر إلى ذلك اضطرارا . أولا ليرضي رغبة الأميرة . وثانيا ليظهر مجهوده الاخلاقي قبل أن تعاجله المنية فتخرج فلسفة التاريخ مبتورة من عضو هام هو الأخلاق . وكل فيلسوف — فيما نعلم — لا بد أن يردف الأخلاق بالسياسة فأين السياسة من فلسفة ديكارت؟ الجواب على ذلك معد ، وهو أنه لم يرد إلا أن ينبه الأذهان في رفق إلى فساد استغرق العصر دون أن يمكر مزاجه ويجرح هدوءه صخب الدنيا ، فضلا عن نداء المجازر والمشانق لكل متمرد ثائر .

من أجل هذا اطمأن صاحبنا الى « منزله المؤقت » المبني على قواعد ثلاث هي : —

١ — طاعة قوانين البلاد واحترام عوائدها ، والثبات على ديانتها في اعتدال أجمع عليه أعقل المعاصرين .

٢ — الثبات في العمل ، وتجنب الشك والتردد في السياسة

٣ — مغالبة النفس التي لا تقدر إلا على أفكارها إذ لا تحكم لنا في الأقدار . وهي أخلاق لها أهميتها — كما يقول « مزنار » Mesnard (١) لأنها تمكن النفس من الاستمرار في البحث عن الحقيقة في أمان ، والاستمرار في كسب العلوم ، ثم هي تكفي الأخلاق المضطربة التي تمثل معنا كل الحياة العملية في كل لحظة .

محمد محمود زيتون

1 Essai sur la morale de Descartes

وأخرى غير منظمة ،

الطرق المنظمة: يمثلها التبشير والتجارة والاستعمار والحروب.

١ — المبشرون

ويرتبط تأثيرهم بالنواحي الدينية والروحية . وتعتبر المسيحية أكثر الأديان تبشيرا . ويقال إن السبب في إرسال المبشرين هو القضاء على الوثنية ونشر المسيحية . والذي يحدث في الواقع هو إحلال الحضارة الأوربية الغربية محل الحضارة الأهلية البدائية . فيعقب وصول المبشرين تغيرات في الملبس والمسكن والعادات والتقاليد واللغة ، ذلك لأن المبشر يعمل على تعليم الناس لغة قومه قراءة وكتابة . وينظر الأهالي إلى المبشرين أول الأمر على أنهم إنما يأتون أعمالا غير شرعية . لكنه سرعان ما تنبذ التقاليد القديمة وتنتشر النظم الجديدة التي يعتمد انتشارها اعتمادا كبيرا على مدى تذوق الأهالي لها . وكثير من القبائل في جنوب افريقيا وجزيرة مدغشقر ونيوزيلند قد تحسنت أحوالها على أيدي المبشرين (١) . ولقد كان للغرب في الشرق منذ زمن بعيد رهبان ومبشرون يعلمون أبناءهم مبادىء العلوم واللغة القومية مع إحدى اللغات الغربية ، وجعلوا من بيروت أس حركاتها ، يبثون في عول النشء المبادىء التي رأوا فيها مصالح أممهم الدينية (٢) . وتقوم الإرساليات الأمريكية بقسط كبير في التبشير الديني .

٢ — التجار

يأتي التجار غالبا في إثر المبشرين . ومع أن التاجر يكون عدوا للمبشر إلا أن الاثنين يعملان معا على نشر الحضارة الجديدة ؛ فالمبشر يعمل على محو الوثنية ونشر المسيحية ، وأما التاجر فيبيع السكاليات مثل الشاي والسكر والأسلحة للأهالي . على أن البضائع التي تباع للأهالي هي من أحط الأصناف (٣) وفي الواقع يلحق التجار كثيرا من الضرر بالسكان ، فمثلا حملوا جماعات الاسكيمو على احتساء القهوة وتناول الخبز واستعمال الطباق ، وتعلقوا بها حتى إنهم اضطروا إلى بيع الجلود التي هم في حاجة إليها — لكي يحصلوا على هذه المواد ، فأصبحت الحاجة ماسة إلى الجلود الأمر الذي أدى إلى سوء الأحوال (١) . وفي ساحل الذهب بغرب افريقيا استطاع التجار أن يحصلوا على الكاكاو — أهم غلات هذا الاقليم — وذلك مقابل إعطائهم الخمور التي ولع بها الزنوج لذلك قال وكلدوكوت Caldecott (٢) « إن المسيحية لم تر في التوسع الأوربي عاملا مساعدا بل وجدته معرقلا لها . » وليس من شك في أن الربح من التجارة كان أساس احتكاك الأوربيين بغيرهم . ويحدث عادة انقسام بين الأهالي إزاء البضائع الجديدة ، فمنهم من يقبل عليها ومنهم من يحجم عنها . ويتوقف نجاح التجار على مدى إحاطتهم بعادات أهل البلاد وتقاليدهم (٣) والقاعدة العامة أنه كلما كان التجار أسمى حضارة كان تأثيرهم قويا ، حتى ولو كانوا قليلي العدد . مثال ذلك : العرب في الملايو ، إذ استطاعوا أن ينشروا الثقافة الاسلامية في هذه الأصقاع رغم قلة عددهم — ولو أن التأثير الجنسي كان ضئيلا بالطبع .

٣ — الاستعمار

وهو انتقال جماعة من الناس من موطنهم الأصلي إلى منطقة أخرى بقصد السيطرة عليها واستغلال مرافقها أو الاقامة فيها . وقد يكون الباعث اقتصاديا أو سياسيا أو هما معا . ولقد كان لمعظم الدول الأوربية نصيب في استعمار المناطق البدائية . وحيثما حل المستعمرون فإنهم ينشرون حضارتهم . ويعتبر محل إقامتهم مركزا للمبشرين والتجار (٤) . وكثيرا ما يحدث امتزاج بين حضارتي المستعمرين والأهالي ، أي أن كلا من الطرفين يستفيد من صاحبه؛ فقد أخذ الأمريكيون عن الهنود كثيرا من أسماء المدن والأنهار ، وفي لغتهم كلمات هندية كثيرة . وإن جزءا كبيرا من غذاء الأوروبيين مأخوذ عن الهنود ، حتى قال أحدهم : « لو أننا حذفنا من الأوربي كل الأصول الهندية فإن ذلك يترك ثغرة كبيرة . ولولا الاتصال الدائم بالوطن الأصلي لحدث

---

١) يلاحظ أن هذا زعم الأوربيين ولعله لا يخلو من المبالغة

٢) الأستاذ محمد كرد علي : الاسلام والحضارة العربية : ١٩٣٤ ج ١ ص ٣٥٠

3. Duncan,p. 162

1- Brown , Teh polar Regions,1927 ,p,156

2- Duncon,p,164 3. Vidal adle Blache principles of human geography, 1926,p,338 4- Duncan' p, 168

التشابه التام بين الحضارتين (١) . « وأحيانا يحتفظ المستعمرون بمقومات حضارتهم ويعزلونها عن الأهالى فلا يختلطون بهم؛ ولكن هـذا الأمر لا يطول . ويتميز الاستعمار الحديث بميزة سوداء ، ألا وهى إبادة كثير من العناصر الأصلية ، هذه الإبادة على ثلاثة أشكال .

ا ـ إبادة مباشرة : وهذه تتم بالقتل كما حدث فى تسمانيا

ب ـ إبادة غير مباشرة : وذلك بتسليمهم الأسلحة التى يجهلون استخدامها فيقتل بعضهم بعضا ، أو نشر الأمراض كما حدث بين الاسكيمو .

جـ ـ إبادة هادئة لطيفة باسكانهم فى المناطق غير المنتجة كما فى استراليا أو ضمهم فى حظائر ـ كما عومل الهنود فى جنوب افريقيا .

وإذا نظرنا إلى أعمال الدول الكبرى يمكن القول إن للاستعمار سياستين (٢) : سياسة التلاشى داخل الوحدة وهـذه سياسة الدول اللاتينية وعلى رأسها فرنسـا ، وتعمل على فرض حضارتها بشىء من القوة مع القضاء على الأصلية وسياسة التنوع داخل الوحدة وهى سياسة الدول السكسونية وفى مقدمتها انجلترا ، وتحاول ايجاد نوع من الاحتفاظ بالشخصية ويكون ذلك فى الناحية الدينية غالبا مع ابقاء الأمور الاقتصادية تحت سيطرتها توجهها كيف شاء لها الهوى . وليس من شك فى أن هذه السياسة أكثر تضليلا ، على أن الأهالى قد يقاومون أو قد يرضخون .

٤ ـ الحروب

للحروب أثر كبير فى احتكاك الحضارات ، إذ أن كلا من الفريقين يستفيد من صاحبه . وقد أدت حروب الاسكندر الأكبر إلى وقوع احتكاك بين التيارين الثقافيين فى الشرق والغرب . وكانت خطة الاسكندر هى إقامة وحدة حضارية عالمية قائمة على الحضارة اليونانية ، والسبيل إلى ذلك إنشاء مراكز ثقافة تدرس فيها علوم اليونان وتحكم بنظمها ، فكانت الاسكندرية من أعظم المراكز الثقافية التى يشع منها نور الحضارة الاغريقية .

ويختلف الكتاب فى مدى احتكاك المغلوبين والغالبين :

1, ibid. P. 170

٢) محاضرات الدكتور عباس عمار فى الجغرافيا الجنسية بقسم الجغرافيا عام ـ ٦٤ ـ ١٩٤٧

فيرى ابن خلدون (١) أن المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب فى شعاره وزيه ونحله وسائر أحواله ، ذلك لأن المغلوب يعتقد الكمال فيمن غلبه ، فالغالب انتحل من العوائد والمذاهب ما أوصله إلى الكمال ، فمكنه ذلك من الغلب ، فإذا اقتدى المغلوب بالغالب فإنه يبلغ درجة الكمال التى تمكنه من أن يغلب الذى غلبه . ولكن قد يحدث أن يحتفظ الغالب بمظاهر حضارته ويأنف من الاختلاط بالمغلوب كما فعل العرب فى مصر أول الأمر لكنها هذه العزلة لا تستمر طويلا . أو أن يحتفظ المغلوب بمقومات حضارته كراهية منه للغالب كما فعل المصريون مع المكسوس والفرس .

ويرى الأستاذ ريفرز (٢) Rivers أنه كلما كانت حضارة المغلوبين راقية كان التأثير عليهم بطيئا بسيطا . والفرق عظيم بين تأثير الأوربيين فى الهند والصين وبين تأثيرهم على العناصر البدائية التى تتأثر بسرعة لأنها أسلس قيادا وأكثر طواعية .

وترى مس سمبل (٣) Semple أنه إذا كان الغزاة أسمى حضارة — حتى ولو كان عددهم قليلا — فإن الغزو يتمخض عن اندماج المغلوبين تدريجا مع الغزاة : فى النظم الاقتصادية ومختلف نواحى الحياة ، مع التسليم بتأخر الاندماج فى النواحى الروحيـة . فقد استطاع الاغريق أن يصبغوا شرق البحر الأبيض المتوسط بالصبغة الاغريقية ، وتمكن العرب من نشر الثقافة الاسلامية فى سواحل شرق افريقيا حتى موزنبيق مع قلة عددهم هناك ، وذلك لارتفاع مستوى حضارتهم وسموها .

وقد استفاد الشرق والغرب استفادة عظيمة من الحروب الصليبية (١) إذ عرف الصليبيون صنائع أرقى من صنائعهم ، وحبب إليهم تسامح المسلمين الهجرة والترحال فربطوا صلات تجارية مع الشرق . وارتفع عن أذهان الغربيين ما كان دسـه رؤساؤهم الدينيون عن الاسلام حتى عاد بعضهم يشرح المعتقدات الاسلامية بضبط ودقة ، كما استفاد المسلمون كثيرا من ذلك .

البقية فى العدد القادم

محمد محمد على
ليسانسيه فى الآداب

١) مقدمة بن خلدون بيروت ١٩٠٠ ص ١٩٤٧

١) فى كتابه : Ipsychology x Ethnology, p 300

(٢ فى كتابها foluences of geographic enVironment 1937 pp 83,74

١) راجع تفصيل ذلك فى كتاب الأستاذ كرد على : الاسلام والحضارة العربية : ج ١ ص ٢٧٦ ـ ٢٩٤

اتين سانت هيلير

من علماء الحملة الفرنسية

للكاتب الفرنسي رنيه سمواز

لشوقي ضيف

في يوم قائظ من سنة ١٧٨٤ شوهد فتى في الثانية عشرة من عمره، منهمكا في البحث عن النباتات والحشرات. كان يتأبط حقيبة يضع فيها باعتناء ونظام الازهار والاوراق التي يقع اختياره عليها، وكان معه علبة لصون الحشرات التي تستحق العناية.

ولما انتهى عمله من جمع النبات والحشرات من نوع الخنافس جلس في ظل سنديانة، وجعل يدرس مجموعته الجديدة بنظارة خاصة ثم كان يدون ملاحظاته في دفتر صغير وكان مستغرقا في درسه حتى انه لم ينتبه لوجود الشيخ الذي كان راقب حركاته باهتمام واعجاب

رفع بصره لسماعه تحطيم غصن يابس، وجعل الشاب يلتفت الى مصدر الصوت فبادر الى أخذ لوازمه واستعد للرحيل لانه رأى شيخا واقفا بالقرب منه « قال له ذلك الشيخ لاضير عليك يابني » لاتقطع عملك لانه يهمني كثيرا، واني لسعيد في نزهتي هذه لانها دفعتني الى التعرف بك، واعركت تماما بانك مشغوف بالتاريخ الطبيعي، لاني كرست معظم حياتي لتعليم وتدريس هذا العلم. فاجابه الشاب: « نعم ياسيدي — لانه آنس بكلماته المشجعة — اني احب النبات والحشرات المختلفة كثيرا باشكالها والوانها. على انه ليس لدي سوى معلومات اولية من التاريخ الطبيعي. وعليه فاني اغتنم العطلة الكبرى لأكون مجموعة من نباتات هذا البلد ومن حشراته. » قال له الشيخ « هل لك ان تريني نتيجة ابحاثك؟ — فاجابه الفتى: سمعا وطاعة، ياسيدي، أرجوك أن تتفرل قصوري لاني مستجد في هذا العلم! »

فأخذ الشيخ المجموعة والدفتر، وأخذ يتأمل باعجاب دراسة هذا الحدث ثم قال. « يابني انك متواضع جدا لانك تطلب مني الصفح عن قصورك، بيد اني ارى هنا طريقة البحث واضحة ومعلومات وملاحظات هي فوق سنك. كل هذا حسن؛ ولكن قل لي اين تعلمت المبادىء الاولية للتاريخ الطبيعي؟ قال له الحدث. اعطاني ابي الدروس الاولى واكملت دروسي في كلية (ايتمب).

— فاستغرب الشيخ قائلا: وهل تسكن عائلتك هذه المدينة؟ — فاجابه الحدث بقوله. نعم ياسيدي، ان والدي هو نائب عام هذه المدينة —

— ماسمك يابني؟

— اسمي جوفروا سانت هيلير

— قال الشيخ، لاعجب بان تكون ذا ميل شديد للعلوم الطبيعية. لان ثلاثة من هذه الاسرة يدعون بجوفروا سانت هيلير كانوا اعضاء في المجمع العلمي فرع العلوم، وكان الاخير يسمى باسمك: اتيين سانت هيلير وكان احد الاساتذة الممتازين لحدائق النبات (حديقة الملك)

قال الفتى. — أراك ياسيدي واقفا على تاريخ اسرتي، مع أني لم أشاهدك قط في بيتنا! فاضاف الشيخ قائلا: صدقت يابني ولكن اعلم باني مطلع على تاريخ العلماء النابهين في العلوم لاني استاذ في حديقة النباتات وفي كوليج ده فرانس.

فاضطرب الفتى من هذه المصادفة حتى انه ما تجرأ ان يسأل الشيخ عن اسمه.

ولما عاد الى البيت قص على ابيه ماتوقع له، فتبسم ابوه وقال ان من صادفت هو العالم « دوبنتون الذي طبق اسمه اوروبا كلها. اني مسرور منك لاهتمامك بالعلوم. ولكن لاتنس ان رغبتي ورغبة امك هي ان تستعد لتعلم امور الدين كي تصبح يوما من حزب الاكليروس »

مولده

ولد اتيين جوفروا سانت هيلير، في (اتيمب) في ١٥ نيسان سنة ١٧٧٢ من والدين عريقين في الشرف، متوسطي الحال مثقفين ثقافة عالية، جدير بان ينتسب لهذه الاسرة الكريمة التي انجبت علمـــاء في العلوم الطبيعية والفيزيائية في غضون القرن

الثامن عشر .

فاعتنى الوالد بثقافة ولده ، ولا سيما جدته التي كانت ترى فيه مخائل الذكاء فقد كانت له خير موجه ومدرس اذ شرحت له منذ نعومة اظفاره كتب أعاظم رجال اليونان والرومان وكذلك ما ألف في عصر لويس الرابع عشر . حتى انه تفهم تاريخ اعاظم الرجال للمؤرخ (بلوتارك) على يديها في سن الحادية عشرة من عمره . نعم لقد ظهرت آثار هذه الثقافة فيه واكسبت نفسه قوة وشجاعة شديدة المراس .

حدث له إذ كان في العاشرة من عمره انه بينما كان يتنزه مع رفاقه في ضواحي المدينة سمع صوت اعوال وصراخ من اناس كانوا يطلبون الفرار فاسرع « اتيين » الى المكان ، فشاهد ويا لهول ما شاهـــد ! . نمر فتاة قد هاجمهـــا كلب والمسكينة جامدة مكانها لاحول لها ولا طول الا البكاء فاسرع صاحبنا الى كرمة واخذ من تحتها شعبا وارتمى على الكلب ضاربا اياه بشدة حتى ولى الحيوان الادبار. وتوارى في الاجمة القريبة .

وبعد ان اتم دراسته المنزليـة على ابويه وفي مدرسة مدينة ايتمب ، نال كرسيا مجانيا في كلية ناقا في باريس ، وتابع دراسته الادبية بسهولة وتفوق بالعلوم تحت ارشاد اساتذة علماء وهنا عما من فكره كل انتساب للاكليروس . واقدم بقواه جميعها على استقاء العلوم المحببة اليه . فتسجل طالبا في حديقة النباتات وفي كوليج دي فرانس ، حيث التقى ثانية بصديقه القديم دوبنتون وتتبع دروسه بكل رغبة ونشاط .

أما الدور الذي مثله اتيين اثناء سنوات الارهاب في الثورة الفرنسية فقد كان في آخر سنة ١٧٩٢ وعمره اذ ذاك عشرون سنة. وكان مستغرقا في دروسه حين قطع عليه الارهاب سلسلة دراسته ، على أنه لم يقطع اطيب الصلات واقواها مع اساتذته في كلية نافار ، وخاصة مع هاوي العالم في المعادن ولا هومون النحوي الشهير وعدد كبير من العلماء .

وكل هؤلاء الاعلام قد اوقفوا وزجوا في غياهب السجون لانهم كانوا متهمين بعملهم للملكية .

فمهما غاية جهده ولم يدخر وسيلة لانقاذهم من هذا المأزق باذلا النفس والنفيس حتى تكللت جهوده بالنجاح .

وعهدت اليه حكومة الكونفنسيون « بتدريس مادة العلوم الطبيعية بناء على اقتراح صديقه » دوبنتون فصار زميلا لهؤلاء الاعلام . « امثال لاسيد — وبرنارد ده سان بيير — وكوفيه ، وكلهم اكبر سنا منه

وكانت حديقة الحيوانات . قد تلاشت في الثورة المشهورة . واخذ العالم الجديد « اتيين » يجدد هذه الحديقة فقام بوظيفته خير قيام وعلا اكتاوحه .

اتيين والكرسي

ولما تسلمت حكومة الادارة الامور عهدت الى الجنرال نابليون بونابرت غزو مصر سنة ١٧٩٨ لقهر انكلترا التي لايمكن مهاجمتها في جزيرتها الصخرية = وبعد ان اتخذ قائد الحملة عدته قرر ان يستصحب بعثة من العلماء امثال « مونج - وبرتوله — ودونون » فقام برتوله وعرض على العالم الشاب اتيين باسم بونابرت وعلى زميله كوفيه ليكونا من اعضاء البعثة .

ولما تم احتلال مصر شرع « أتيين » في أعماله في التاريخ الطبيعي فجمع مجموعة طيور من ذوات الريش المحيب . وكتب في مذكراته « في هذا الفردوس الأرضي يفسي المرء نفسه بأنه ينبغي عليه أن يسكن الساكن المقفرة وأن يسعى وراء قوته مثل الحيوانات التي يدرسها . فكان يقوم كل منا بدوره بوظيفة الطاهي . ولكن عندما يكون دوري يضطر الرفاق إلى تناول المجففات » .

بيد أن الأمر لم يطل كثيرا لأن الأوامر صدرت من كليبر وده سيكس بضرورة الجلاء عن أرض الكنانة ؛ ولكن « إتيين » على وغم قرب الاحتلال الانجليزي وفشل حملة بونابرت لم ينفك عن العمل في مخبره كأن الأمر كان طبيعيا إذ لم يوقفه لحظة واحدة انفجار القنابل وأزيز الرصاص . كما كان ارخميدس في حصار سيراكوك ! .

دخل مخبره يوما زميله العالم فوريه وقال له . « يا صديقي انقطع عن العمل لأن الجنرال « مو » وقع على وثيقة التسليم ، وستعود بعثتنا إلى فرنسا . — فاجابه حمدا لله ! أن مجموعاتي

الشعر المصري في مائة عام

علي ابو النصر

١٨٨٠ — ...

للاستاذ محمد سيد كيلاني

[illegible] ورحل إلى القاهرة والتحق بالأزهر . ويقرن اسمه عادة باسم زميله الليثي ، فقد كانا نديمين للخديو اسماعيل غير أنه كان أسبق من صاحبه في الظهور في ميدان الشعر وفي الاتصال بالحكام . فقد روى أن محمد علي باشا أرسله ضمن بعثة إلى الآستانة لحضور فرح أقامه السلطان عبد المجيد . ثم اتصل بسعيد ومدحه ورثى ابنه طوسون بقصيدة طويلة . ثم اتصل باسماعيل وأصبح من ندمائه المقربين إليه . وقد قيل إنه (١) كان طيب المفاكهة والمجالسة ، لطيف السامرة والمؤانسة ، حاضر الذهن لا يغالبه في المناظرة من جاده . وكان له مطايبات مشحونة بالنكت الأدبية مع الحشمة والحذر مما تأباه النفوس الأدبية . وقد صحب الخديو اسماعيل في بعض رحلاته إلى دار الخلافة . ومات في أوائل حكم توفيق .

وله ديوان شعر مطبوع منه بعض نسخ بدار الكتب المصرية

* * *

امتاز ابو النصر على الليثي بولعه العظيم بالمحسنات اللفظية من تورية وجناس وطباق . وكان أمتن أسلوبا من صاحبه إلا أنه كان يشبهه من حيث الإفلاس في المعاني والمفردات اللغوية . ومن قوله يمدح سعيدا :

أشرقت أنوار إقبال السعيد ... فازدهى روض التهاني بالصعيد

وابتهاج الأنس أضحى شاهدا ... بانتظام الشمل في عز مديد

والليالي بالأماني أقبلت ... باسمات الثغر عن در نضيد

ويلاحظ هنا أن الشاعر ذكر « الروض » و « الأنس » و « الليالي الباسمات » و « الأماني » . وهو بهذا يذكرنا بصاحبه الليثي في قصيدته التي يقول فيها :

أنعم بطيب ليال لحن كالغرر ... في جبهة الدهر تسمو عن سنا القمر

بها تزف الأماني في مواكبها ... لكل راج ويرعاها أخو السمر

إلا أن أبا النصر كما ترى أجود قولا من صاحبه . والصورة الشعرية التي في قوله :

(١) أنظر مقدمة ديوانه

جاهزة بأعطى الأوامر لشحنها ، ان حملتنا لم تذهب سدى لأن العلم يملك النتائج الطيبة فحسب . — فقاطعه قائلا . بكل أسف أن أعمالنا سيستولي عليها الانكليز وبذلك تذهب جهودنا عبثا . فاجابه « اتيين » من فوره : كلا ، سنقابل القائد الانكليزي وسوف نقنعه بأنه مخطيء في تنفيذ فكرته وفعلا ذهب وقابل هو والعلماء القائد الانكليزي وبسط له فكرته بشأن المادة السادسة عشرة القاضية بتسليم الجيش الفرنسي كل معداته . — فرد عليه « أتيين » بقوله ليس هذا عملا حربيا ، انما هذه أعمال قام بها العلماء خدمة للعلم . فاجابه « هوتشنسون » لقد وقع على المادة السادسة عشرة وليس في إمكاني عدم تنفيذها .

فاجابه أتيين : مادام الأمر كذلك فاننا نرفض ان نسلمكم ثمرة جهودنا . وسنتلف كل هذه الثروة التي جمعناها قبل أن يدخل جيشكم هذه المدينة . ولدى مجيئكم لا تجدون سوى رماد هذه الكنوز . فأيد أعضاء البعثة قول « أتيين » قائلين سنتلف كل ما لدينا .

وزاد (اتيين قائلا — ستسلم أوروبا كل شيء . لقد احرقت فيما مضى مكتبة الاسكندرية ؛ وتعبث انكلترا اليوم باعمال العلماء الرائعة المجيدة في ميدان العلوم فلن تنسى عملها الأجيال .

فاثرت بلاغة هذا العالم الشاب في القائد الانكليزي وألغى المادة السادسة عشرة ورجع العلماء بكنوزهم إلى فرنسا . ورافق بعدئذ نابليون في حملة البورتغال واسبانيا وزاد في ثروة العلم بما عمله من اكتشافات في ميدان التاريخ الطبيعي .

ومات سنة ١٨٤٤ بين اسرته مأسوفا عليه من أبناء وطنه ومكرما من كل أوروبا .

ترجمة

وديع شحيد

أستاذ اللغة العربية في مدرسة التجارة الثانوية بدمشق

والليالي بالأماني أقبلت باسمات الثغر عن در نضيد

خير بكثير من الصورة التي في قول الليثي:

بها تزف الأماني في مواكبها لكل راج ويرعاها أخو السمر

ولم يقف أبو النصر عند المدح طويلا، بل اكتفى بهذه الأبيات الثلاثة. ثم انتقل إلى ذكر الجيوش السعيدية. وقد أجاد في الانتقال. فبعد أن ذكر الليالي المقبلة بالأماني، قال:

معربات عن جيوش تزدري بالآلى وهي في العقد الفريد

سادة إذ شيدوا بيت العلا لم يزل مدحي لهم بيت القصيد

إن بدت أعلامهم في موكب جاءت البشرى على خيل البريد

أو تبدى طيفهم يوم الوغى مزقت منه المدى خوف الوعيد

والذي يظهر لي من هذه الأبيات أن الشاعر وضع نصب عينيه عبارات «العقد الفريد» و «بيت القصيد» و «خيل البريد» ثم شرع ينظم كل بيت بحيث يتفق مع إحدى هذه العبارات. ولذلك كانت معانيه تافهة. وما قيمة خيل البريد هذه بجانب الأسلاك البرقية وقد عرفت في مصر منذ عهد محمد علي؟ ووصف الجيوش بأنها تزري باللآلىء غير جيد لأنه جعل هذه الجيوش أداة للزينة تفوق اللآلىء في الحسن والجمال. ولكن عبارة «العقد الفريد» قد استهوته وسيطرت على تفكيره فساقته إلى هذا الوصف وكذلك قوله:

سادة إذ شيدوا بيت العلا ... الخ فلم يذكر بيت العلا إلا ليقول بيت القصيد. ثم استطرد في وصف هذه الجيوش في أبيات ذكرناها عند الكلام عن عصر سعيد.

وقد لاحظنا أن الليثي كان يبدأ المدح بذكر الليالي والأماني والأنس ويأتي بصور الرياض والأزهار والطيور والجداول وغير ذلك. أما أبو النصر فكان يبدأ في الغالب بغزل طويل متكلف ممل، ثم ينتقل إلى المدح الذي لا يستغرق فيه سوى أبيات قليلة قد تصل إلى أربعة أبيات أو خمسة. ومن قوله يمدح اسماعيل:

إليك خديوي مصر تصبو المحامد ومنك ترجى للأنام الفوائد

وعنك حديث المجد يروى صحيحه وفيك لآيات الفخار شواهد

وأنت أخو العليا وأنت أبو الفدا وأنت لكف الدهر كف وساعد

وجودك للأوطان عز ونعمة وجودو بحر فيه تحلو الموارد

إلى ملك الدنيا تود انتسابها لما علمت في الكون أنك واحد

وما مصر في الأقطار إلا كجنة وذكرك فيها بالمكارم خالد

وعدلك في كل الممالك ثابت فكل مليك شاكر لك حامد

وليس في هذه الأبيات سوى مدح الخديو بالكرم والتفرد بالمجد ونشر العدل. وقد بالغ في هذا مبالغة ظاهرة؛ فجعل الدنيا تود أن تنتسب إلى الممدوح لما لم تجد له شبيها. وجعل عدل الخديو مشهورا في جميع ممالك الأرض حتى أن ملوك العالم قد شكروه وأثنوا عليه لما سمعوا بإنصافه وهذا عبث وهراء اضطره إليه ضيق المجال.

وقال:

سعودت عن أقطار ملكك رحلة بها سارت الركبان والسعد قائد

وسرت فطاف النصر حولك ساعيا وغيرك من درك المآرب قاعد

والمعنى تافه كما ترى. والطواف والسعي يكونان حول شيء ثابت. والصورة المنتزعة منهما لا تتفق مع الصورة التي توحي بها كلمة «سرت» ولو قال «وسرت فسار النصر فوقك ساعيا» لكان موفقا. والظاهر أنه كره أن يكرر الفعل ثلاث مرات في بيتين متتاليين. فإن صح هذا فقد كان بوسعه أن يقول «وسرت فكان النصر حولك ساعيا.»

ثم قال:

وصلت إلى دار الخلافة زائرا مليكا له بالمكرمات عوائد

مليك حباك الود في غاية الصفا وشاطرك الآرا ونعم المقاصد

والمعنى في منتهى الضعف. وقوله «في غاية الصفا» من عبارات الدهماء. وقوله «وشاطرك الآرا ونعم المقاصد» خلو من المعنى. وقال:

عنالك شاهدت المحاسن كلها ولا زلت للصنع الجميل تشاهد

ومعناه قد بلغ الغاية في التفاهة.

وقال:

ولكن إلى مرآك مصر تشوقت ومنها إليها صادر الشوق وارد

نأيت فكاد النيل يبخل بالوفا وعدت فوافى جيره وهو زائد

وقوله «ومنها إليها» من ردىء التراكيب. وليس في البيتين من المعنى ما يستحق الذكر. ويلاحظ أنه يكثر من تشبيه جود الممدوح بالبحر. وقال من قصيدة أخرى:

فهو المليك الذي علا مآثره وفائض الجود من جدواه امتاد

المفرد العلم الأسمى علا شرفا وفاض بحرا فكم ترجوه وراد

كالغيث جادبما يغني الأنام بلا من فجدواه إنجاز وإيجاد

وليس في هذه الأبيات سوى مدح الخديو بالكرام

السلام بلبة

محمد سيد كيلاني

الربيـــع

للشاعرة الانجليزية آن ووسرزلى

هاقد جاء الآن موسم الربيع ، يا من لملك تذكرني الآن مثل ذكراى لك ، فتخلع على كل واد لوناً ؛ وأقام عند كل شعب محراباً من محاريب الجمال ؛ ونفخ فى كل خلية روحاً ؛ وأوحى إلى الطير بأغاريد الفجر الجديد والفصل الضاحك ؛ فاستخف بذلك كله أهل الحى الذين خفوا يلتمسون آثار هذه المباهج ، وطفقوا يستبيحون لذائذ هـــذه الحياة فى موسم انتعاشها وانبعاثها وازدهارها . .

ها هى ، يا من يأبى عليك القدر الصارم إلا أن تتناسينى ، كل مفاتن هذه الطبيعة ومباهج هذا الربيع ، خليقة أن تضىء النفس بأقباس الهناءة ، وخليقة أن تصل القلب بأسباب السعادة . .

ها هى ذى كلها قد استحال عليها أن تجعل منى أحد أولئك السعداء ... وأنت يا حبيبتى بعيدة عنى . . !

***

فى الجو ، هنا ، عصفور غرد فرح ، يروح ويغدو ، فوق رأسى ، وفوق الشجر . .

وهناك ، عند أقصى الحديقة ، تطل حمامة مطرقة برأسها الجميل ، من بين السياج ، وهى ترسل من حين إلى آخر هديل قلبها الصغير بحب فراخها ، يتردد رقيقاً صافياً مع النسائم الندية . .

وهنا لك ، فى الناحية المقابلة ، تلك العرائش الخضر المذهبة ، ذات الحواشى البيض ، التى تعرفينها جيداً ، والتى طالما انطلقنا عندها خفيفين نمرح على سجيتنا ، فى براءة الأطفال ، وطهارة المحبين . .

إنها جميعاً ترد إلى ذهنى ذكريات حبنا العتيد . وما كان أجملها وأحفلها ذكريات !

وهى فى الحق ، إنما تحيط وحدتى بشىء من أنس وإشراق ، وتجعلها أقل إيحاشاً وتروياً — حين لا تكونين بقربى ، أنت أيتها الحبيبة !

***

أجل ، هى كذلك ، ولكن الحب موهبة الطبيعة لأبناء الحياة ، وهو بهذه الصفة حق طبيعى لكل مخلوق ، وملك خالص لكل حى . .

ألم ترى — مرة — إلى زوجين من الطير تتعانقان أشد العناق الغريرة ، وإلى زوجين من الناس يتطارحان رغباتهما البريئة ... ؟ أم قد غاب عنك كيف يسعى كل حيوان ، وكيف يحاول كل إنسان ، أن ينال قرينه بحبه ويكاشفه بلواعجه . . فى أيام الربيع هذه . . ؟

وفى أيام الربيع هذه . . كنت أن أتوقع أن يهبىء لى حظى من حبى نعيم نجوى المحبة ، ونعمى قبلاتك الحلوة ، ولكنك لست هنا ، أيتها الحبيبة !

فأنى لى أن أتشوف إلى السعادة ؟ ولم أحتفل بالربيع وشيه ، وألوانه مادام ذلك القدر الصارم قد حرم على تلك السعادة ؟!

(دمشق) محمد الأرناؤوط

ادارة البلديات العامة

مبـــانى

تقبل العطاءات ببلدية بنى سويف لغاية ظهر ١٥ مايو ســـنة ١٩٥٠ عن بنـاء مخزن بفناء مبنى وابورات الانارة وتطلب الشروط من بلدية بنى ســـويف نظير ٣٠٠ مليم بخلاف أجرة البريد .

٤٦٢٤

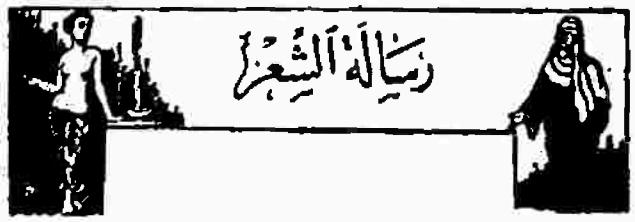

هتاف روح

« فى ليلة دافئة من ليالى كاليفورنيا »

للاستاذ سيد قطب

فى الجو يا مصر دفء يدنى إلى خيالك
وتستجيش حنينى إلى الليالى هنالك
للأمسيات السكارى نشوى ترف خيالك
ونسمة فيك تسرى ريانة من جمالك
نجواك ملء فؤادى ترى خطرت ببالك
النيل والموج سار يقبل الشطئان
والبدر والنور ساه كحالم وسنان
وفى الجواء حنين يجنح حيران
ومن هنالك لحن يهفو إلى الآذان
صداه ناء عميق فى نأى هذا الزمان
فى النفس يا مصر شوق لخطرة فى رباك
لضمة من ثراك لنفحة من جواك
لومضة من سماك لهاتف من رؤاك
لليلة فيك أخرى مع الرفاق هناك
ظمآن تهتف روحى متى ترانى أراك ؟

سان فرانسكو — سيد قطب

يا حياتى !

للاستاذ ابراهيم محمد نجا

ألا يا حياتى ملت الشبابا ... فهلا طويت الشباب لقضايا
وعفت خداع الأمانى الكذاب ... فردى إليك الأمانى الكذابا
وهاتى المشيب ، لعلى به ... أبدد من غالى الاضطرابا
فيقمر نفسى هدوء رحيب ... ويذهب عنى نزوع عجيب
ويسكب فى خلجاتى انسيابا
وشوق إلى عالم ذى حجاب ... إلى كل سر دمانى وغابا
أريد لأكشف عنه الحجابا
حلمت به فى ليالى الصبا ... رؤى باهرات ، وفنا وعجابا
فلما انتبهت ، وفى نشوة ... من الحلم ، طابت لقلبى وطابا
وأبت إلى عالم هفته ... تمنيت أنى عدمت الإيابا
وحب ظمئت إلى وردة ... ليسقينى ، فسقانى السرابا !
وسر طوانى ، ولم أطوه ... وعذبنى ، فاحتملت العذابا
شربت المرارة من كأسه ... فيا للمرارة صارت شرابا !
وسرت به فى رحاب الحياة ... غريبا ، فضاقت حياتى رحابا
يؤرق ليلى بأشجانه ... ويسدل فوق نهارى السحابا
ويحرق روحى لظى عاتيا ... ويمتد فى أفق عمرى ضبابا
أحدث نفسى به خاليا ... وأكتمه حين ألقى الصحابا
رمانى به قدر صارم ... فيا ليته إذ رمى ما أصابا
وكنت ولى رغبة فى الحياة ... فلما رمانى ... تملكت الرغابا !
وكانت لقلبى منى حلوة ... فذابت دموعا بقلبى ، وذابا
وهأنذا قد ألفت البكاء ... فأرسلت قلبى دمعا مذابا
بكيت حياتى وغنيتها ... وبعض الغناء يكون انتحابا
وكل يترجم عما به ... ويكشف عما لديه النقابا
ولو كنت أملك سر الغناء ... لأرسلته نغما مستطابا
ولكنما ملكتنى الشجون ... فأرسلتنى شجنا واكتئابا
نصيبى الذى أطلقته الحياة ... لهوم فى أفق عمرى غرابا
زرعت بعمرى ورود المنى ... فلما جنيت ... جنيت اليبابا !
وأسأل نفسى السؤال الرهيب ... وإنى لأعرف عنه الجوابا
أقول لها : كيف أجنى العقاب ... ولم أجن ذنبا ، وما قلت عابا ؟
لعلك أذنبت فى عالم ... بعيد ، فهلا احتملت العقابا ؟
إذن سوف أحمل ما تكرهين ... وأرضى بما تنكرين ... احتسابا
وأجعل عمرى أسى كله ... وأملؤه وحشة واغترابا
وأنثر فى الأرض زهر المنى ... فأشعر أنى نثرت الشبابا
وأجنى من العمر شوك الضنى ... كأنى زرعت بعمرى الصعابا
وأمضى بلا رغبة فى الحياة ... أرود الوهاد ، وأطوى الهضابا
على الشوك أمشى ولا أشتكى ... وفوق الرمال تشع اللهابا !
لعلى أرى الموت مستعجلا ... بقربى ، فأزداد منه اقترابا
أناديه : حتى متى الارتقاب ؟ ... أما ضاع فيك الشباب ارتقابا ؟
طلبتك إذ عذبتنى الحياة ... فحسبى عذابا ، وحسبى طلابا
حياتى قشور ، وأنت اللباب ... وبا موت إنى أريد اللبابا
فأسمع صوتا كرجع الصدى ... يقول — وما قال إلا صوابا : —
لقد آن يا موت أن يستريح ... وفى دينه ، واقتضينا الحسابا
وكل إلى أصله صائر ... فقل «للتراب» : ستغدو ترابا

ابراهيم محمد نجا

الأدب والفن في أسبوع

للأستاذ عباس خضر

مناظرة بين الأدب العربي والأدب الغربي :

جرت يوم الأحد الماضي مناظرة في قاعة المحاضرات بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ، كان موضوعها « يجب أن يستلهم الأدب العربي الحديث الأدب الغربي الحديث أكثر مما يستلهم الأدب العربي القديم » أيد الرأي الدكتور محمد القصاص والأستاذ عبد الرحمن الخميسي والطالب نايث لطف الله والآنسة كليوبانرة خليل ، وعارضه الأستاذ عمر الدسوقي والأستاذ حامد داود والطالب محمود مكي والآنسة بشرى جنينة .

والموضوع - كما ترى - يقتضي أن يستلهم الأدب العربي الحديث كلا من الأدبين العربي القديم والغربي الحديث ، ولكن الخلاف على الكمية ... فطبيعة الموضوع تفرض على كل من المتناظرين أن يقر فائدة الأدبين وحسن أثرهما في أدبنا الحديث ، وليس له إلا أن يقول بالاكثار من هذا والاقلال من ذاك ، فالمسألة بهذا الوضع مسألة بدهية من حيث انه ينبغي الأخذ والاستفادة من هذا وذاك ، فاذا يدعو إلى المناظرة والجدل فيها ؟ أللقول بزيادة نسبة هذا على ذاك ، فنستلهم مثلا الأدب الغربي بنسبة واحد وخمسين في المائة ، والأدب العربي القديم بنسبة تسعة وأربعين في المائة ، أو العكس ، أو ننقص هذه النسبة أو نزيد تلك ؟

ولكن حماس المتناظرين ورغبتهم في الصيال والجولان وميل كل فريق إلى أن يظفر بتأييد رأيه ، كل ذلك جعلهم يتعدون تلك الحدود الضيقة العقيم ... وكأنهم أدركوا تفاهة المسألة وقلة خطرها من حيث تعيين القدر الذي ينبغي استلهامه من كل من الأدبين .. وبذلك تحولت المناظرة إلى مقاتلة بين الأدب الغربي الحديث والأدب العربي القديم ، فحمل كل من الجبهتين على الآخر ، يثلب أدبه ويشيد بما يناصره ، وقد يمتد الرشاش إلى الأشخاص ، فهذا جاهل لم يطلع على الأدب العربي القديم وهذا رجعي متأخر ... الخ

وعلى ذلك راح مؤيدو الرأي يشنون الغارة على الأدب العربي القديم ، يقولون إنه أدب بعيد عن حياتنا المعاصرة وهو أدب أجوف يعتمد على فخامة اللفظ والتركيب وأدباؤه فرديون ، ولم تكن فيه وحدة القصيدة . وقالت الآنسة إنه صعب خشن لا يلائم حياتنا الناعمة .. واستشهدت بأبيات لعنترة يتغزل فيها بعبلة على أن الشعر العربي شعر حسي لأن عنترة لم يعجبه في حبيبته إلا جمالها وصفاتها الحسية ولم يهتم بروحها .. وقال الأستاذ عبد الرحمن الخميسي إنه أدب جهنمي حار ! وجعلت درجة الحرارة في خطابة الدكتور القصاص تميل إلى الصعود تدريجيا .. فسفه تفكير العرب ووصف أدبهم بالعقم وقارن بينه وبين آراء العلماء والفلاسفة الغربيين ... وارتفعت درجة الحرارة فجأة إلى أقصى حد إذ قال إن الأدب العربي جزء من التاريخ الميت ويجب أن نبحث له عن متحف من متاحف الآثار الميتة ! !

وعلى ذلك أيضا طفق معارضو الرأي يكيلون للادب الغربي قدحا بقدح ، يقولون إنه أدب منحل لا يناسب بيئاتنا الشرقية وإنه إنما يصور حالات في تلك الأمم تختلف عن حالاتنا ، وقد نشأت فيه مذاهب بظروف خاصة نتيجة لاضطراب الخواطر وقلق النفوس من أثر الحروب وغيرها ، وهي مذاهب معقدة ملتوية كالرمزية والسريالية ، وقد أفاض في ذلك الأستاذ عمر الدسوقي ، وعرج على شعراء العرب المحدثين الذين قلدوا تلك المذاهب ، وأتى بأمثلة من أشعارهم وكان لقصيدة « الشاطىء الحافل » للدكتور بشر فارس مكان في هذا المجال . وجعل يبين ما في بعض هذه الأشعار من خلط وما في بعضها من سخف ، كما أفاض الأستاذ الدسوقي أيضا في عرض كثير من القصص الغربية التي رأى أنها تدافع عن النقائص والرذائل . وارتفعت

درجة حماسه ضارباً على وتر الفضيلة والقومية حتى دوى له التصفيق فى أرجاء المكان .

ولم يفت هؤلاء أن يردوا طعنات أولئك ، التى وجهوها إلى الأدب العربى ، وكذلك صنع الأولون بما وجه إلى الأدب الغربى . وكان الدكتور الفصاص قد استهل كلمته بالإشارة إلى ما حدث بفرنسا على أثر هزيمتها فى الحرب الماضية، إذ جعل القوم يفكرون فى أسباب هزيمتهم ، فلم يوجعوها إلى خطأ فى السياسة أو فى خطة الحرب ، بل قال قائلهم إن التبعة فيما أصاب فرنسا على أساتذة الدين والأدباء الذين لم يحسنوا توجيه الجيل ، واستطرق الدكتور من هذا إلى القول بأن أدب العرب لا يصلح للتوجيه فى هذا الزمن فيجب أن نتجه نحو أدب الغرب ونغترف من علومه وثقافاته .

فلما تكلم الأستاذ الدسوقى قال معقباً على ذلك : كيف نستلهم الأدب الفرنسى وهو الذى أدى إلى هزيمة فرنسا ؟

ودافع الدسوقى عن الأدب العربى وأتى بروائع منه واستشهد بأقوال فيه لبعض المستشرقين ، ومما قاله أن وحدة القصيدة كانت موجودة فى كثير من القصائد فى الجاهلية والإسلام على أن لكل أمة طابعها الخاص فى أدبها . وقد عقب الخميسى على ما قاله الدسوقى فى أدب الاتحلال الأوربى فدافع عن القصص التى ذكرها الدسوقى بأنها تصور الدوافع الانسانية وأن الأخلاق شىء آخر غير الفن .

ومما يلاحظ أن أكثر المتناظرين لم يكن نطقهم العربى سليما وخاصة الطلبة ، وكانت الآنسة المؤيدة مثالا فى ذلك ، وهى - نعم - من القسم الانجليزى ، ولكن ألم تسمع مرة من أحد الأساتذة أو غيرهم اسم « أبى نواس » الذى نطقته كما ينطقه العوام « أبو النواس » وأعتقد أن هناك قدرا من تقويم الألسنة فى اللغة القومية ينبغى أن يأخذ به كل متعلم مهما كان نوع تعليمه . وقد خرج الأستاذ عبد الرحمن الخميسى من هذا المأزق باللغة العامية الخالصة .

وقد طلب إلى الحاضرين - بعد انتهاء المناظرة - أن يقف منهم من يؤيد الرأى فوقفت أقلية ، ولما طلب وقوف

شكوى الأسبوع

▫ فرغت لجان جوائز فؤاد الأول من عملها فى فحص الانتاج المرشح لنيلها واقتراح ما تراه حقيقا بها من الكتب المقدمة، واللجان ثلاث ، لجنة الآداب ، ولجنة القانون ، ولجنة العلوم الرياضية والفلكية، والجائزة المقررة لكل من أصحاب الكتب الفائزة فى النواحى الثلاث مقدارها ألف جنيه . وقد اجتمعت اللجنة الدائمة للجوائز برياسة معالى وزير المعارف يوم الثلاثاء الماضى ونظرت فى قرارات اللجان الفرعية ووضعت القرار النهائى فأجلت : جائزتى الآداب والقانون الى العام المقبل ووافقت على تقسيم جائزة العلوم بين اثنين. وستعلن النتيجة فى الاحتفال بذكرى المغفور له الملك فؤاد الأول يوم ٢٨ ابريل الحالى.

▫ كتب الأستاذ توفيق الحكيم فى العدد الأخير من « أخبار اليوم » يقول إن الروح المسيطر الآن على الحياة المصرية هو التهريج ، وقد اتسمت حياتنا بهذا الروح إلى حد نرى فيه الصفوة من العلماء والمثقفين وأساتذة الجامعات وطلابها إذا أرادوا إحياء حفلاتهم السنوية لمآتمهم أيضا إلى المتقلين من المغنين والمضحكين والراقصات . إلى أن قال : إن العالم يعيش فى عصر الذرة ، ومصر تعيش فى عصر « شكوكو » ...

▫ كتب الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى فى « المصرى » يقول بأن ابن سينا كان طبيبا أكبر منه فيلسوفا ، وبنى ذلك على اعتراف أوربا اللاتينية بمنزلته فى الطب ، وأخذ أهل المغرب والأندلس بطبه دون فلسفته ، وأنه نظم فن الطب وبوبه وابتكر ضروبا من المعالجات يمتازبها عن القدماء، على حين لم يكن فى الفلسفة صاحب رأى جديد إلا فى النادر.

▫ إذا ظهر كتاب للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى فاعلم أن الأستاذ محمد عبد الغنى حسن سيكتب عنه ، والعكس صحيح .

▫ « وزارة المعارف العمومية » هكذا تسمى الوزارة المشرفة على التعليم والتثقيف، وأستطيع أن أؤكد أن ليس فى مصر وزارة معارف خصوصية ... ووزيرها يقال له وزير المعارف العمومية ، ولقد كان يتسامح فى ذلك من قبل، ولكن الآن قد أصبحت هذه « العمومية » غير مستساغة والوزير طه حسين

▫ من المسائل التى يبحثها مجلس الإذاعة الأعلى تنظيم إصدار وتحرير مجلة الإذاعة بحيث تكون فى حالة تساعد على رواجها.

▫ تلقت وزارة الخارجية من بعض البلاد الأجنبية أنها ترغب فى الحصول على أفلام مصرية تصلح للدعاية لمصر فى الخارج ولكن مصر - مع الأسف - لم تجب هذا الطلب لأنها لم تجد لديها أفلاما يتحقق فيها هذا الغرض .

▫ قدم الأستاذ يوسف وهبى بك استقالته من الفرقة المصرية.

المعارضين وقف أكثر الحاضرين وكان حماس السوقي في الدفاع عن الفضيلة والقومية لا يزال سائدا عليهم إذ كان أخذ الرأى عقب كلمته . ولم أفهم أنا مع المؤيدين ولا مع المعارضين لأنى أرى أن نأخذ من هذا كما نأخذ من ذاك . . ولست أدرى لماذا أهملوا هذا الجانب ! ولعل عذرهم في ذلك أنهم لم يجدوه طرفا في المناظرة . ولكن لماذا ما دامت المسألة مسألة تحديد القدر ؟ أليس من حق مثلا ، وقد يكون لى أمثال في الحاضرين ، أن نجعل النسبة ٥٠ في المائة لكل من الأدبين ! !

ثم لماذا قصر الأمر على الأدب العربى القديم والأدب الغربى الحديث ؟ لماذا لا نأخذ ونستفيد من الأدب الغربى القديم ، ومن الأدب الهندى ومن الأدب الصينى ومن كل أدب في هذه الدنيا قديما وحديثا ؟ أنا لا أعرف للثقافة والمعرفة حدا ، والأديب العصرى يجب أن يأخذ من كل شيء أحسنه ، ولا يقف عقله على جديد لأنه جديد ولا يغلقه دون القديم لأنه قديم .

ومما يلاحظ أن المناظرة لم يكن لها نتيجة ، وهذا من طبيعة الموضوع ، فهى أشبه بما كانوا يقولونه قديما في السيف والقلم وما يهيئه معلمو الانشاء في المدارس من الصراع « الفكرى » بين الطيارة والسيارة ، ولا شك أن كلا من السيف والقلم والطيارة والسيارة لازم مطلوب في موضعه ، وكذلك الأدب العربى القديم والأدب الغربى الحديث . فلم يكن يليق بالجامعيين أن يستهلكوا جهدهم على ذلك النحو مضحين بما عرف عنهم من البحث « المنهجى » عن حقائق الأشياء .

مسرحية « أصدقاؤنا الرؤساء »

افتتحت الفرقة المصرية موسمها الثانى على مسرح الأوبرا الملكية بهذه المسرحية ، بعد انتهاء الموسم الأخير بهذا المسرح . كتبها الأستاذ متوح نشاطي ويقال إنه اقتبسها ، وتبدو آثار الأصل بها من حيث دلالة الحوادث على البيئة الغربية ، كما سأبين بعد . وأخرجها الأستاذ زكى طليمات ، وقام بأهم الأدوار فيها الأساتذة حسين رياض واحمد علام وعمر الحريرى وفؤاد شفيق والسيدة زينب صدقى وروحية خالد ونعيمه وصفى .

والقصة تتلخص في أن صالح بك برهوم (حسن رياض) رجل مسماح يعيش في ضيعته بمشهر ، يشغل وقته برعاية مزارعه وحديقة قصره ، واستقبال ضيوفه من الأصدقاء الذين يكثر منهم ويغتبط بوفودهم عليه ويسرف في إكرامهم والإغداق عليهم ، وهم أنماط مختلفة ، فهذا زميل الدراسة أتى وزوجته إلى ضيافة رفيق الصبا ، وهذا صديق عزيز جاء هو وولده كذلك ، وذاك ضيف من طرابلس ينزل على الرحب والسعة دون سابق معرفة . الخ —

وفى البيت امرأتان هما فوزية (زينب صدقى) زوجة صالح بك ، وفتاة (روحيه خالد) ابنته من زوجة متوفاة ، وفيه أيضا الشاب خورشيد (عمر الحريرى) ابن عم الزوجة ، وهو شاب وسيم فاسد الخلق ، يستغل كرم الزوج وطيبته ويحاول استمالة الزوجة وإغراءها ، وهو يتمارض ليطيل إقامته ، ويستدعى الدكتور عزمى (احمد علام) لعلاجه ، فيظهر أن بينهما معرفة قديمة ، وتتعلق الفتاة فتن بالدكتور عزمى . وتقع حوادث يعمل فيها الأصدقاء الضيوف على تنغيص حياة صديقهم المضيف وتكدير صفوه بمختلف الوسائل ، ويرقب الدكتور الحالة وهو ساخط عليهم ، كما يرقب العلاقة بين الزوجة وابن عمها ، ويتخذ من التدبير ما يفسد به أمرهم جميعا وينقذ الزوجة من نوايا الشاب الأثيم ، ويكشف رياء الأصدقاء فيثبت لصالح بك أن ما يدعيه أولئك « الأصدقاء الألداء » من الاخلاص والود والوفاء لا حقيقة له ، وأن الدكتور عزمى الذى لا يكاد يذكر كلمة الصداقة هو الصديق المخلص حقا الجدير بأن يزوجه ابنته .

وتمتاز القصة بأنها محبوكة ومتسلسلة في منطق مستقيم وتكاد تكون عديمة الهجوات . وهى كما ترى قصة اجتماعية ، تعالج هذا الموضوع ، موضوع الصداقة والأصدقاء ، من حيث كثرة المرائين — وقلة المخلصين بل ندرتهم ، ولكنك تشعر وأنت تشاهدها أن الموضوع يتطلب علاجا أروع مما بذل فيه ، كما تشعر في عرض التفصيلات بالجدب في الالتفاتات الجزئية التى تعتبر مثل هذه الرواية مجالا خصبا لها ، وذلك ناشيء — فيما يبدو لى — من أن الكاتب غير متفعل بالبيئة التى عرض لها ، وهو وإن أظهر لنا بعض الشخصيات ذات الملامح المصرية المعروفة إلا أن الصورة الأصلية ، وهى صورة صالح بك وأسرته المنقطعين إلى الريف المحبين له السعداء فيه ، أقرب إلى صور الريف في أوربا

مدارس علم النفس المعاصرة

تأليف العلامة : روبرت ودورث

ترجمة : الأستاذ كمال دسوقي

نشرته : دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٠

الكتاب الذي أقدمه اليوم لقراء العربية من وضع العلامة روبرت ودورث Robert Wodworth الذي ولد في بلخرتون من أعمال ماساتشوستس Massachusetts بأمريكا في ١٧ أكتوبر سنة ١٨٦٩ . وهو يحتوي على طائفة من المحاضرات ألقاها المؤلف سنوات عدة ، إبان اشتغاله بالتدريس في جامعة كولومبيا عنوانها « نظرة في علم النفس المعاصر » ونشرت بنيويورك لأول مرة سنة ١٩٣١ تحت هذا العنوان « مدارس علم النفس المعاصرة » .

ويحاول المؤلف في مستهل كتابه أن يحدد موضوعه وأن يرسم خططه الرئيسية ، فيقول في مقدمته « ويحاول هذا الكتاب أن يلقي نظرة موضوعية على علم النفس المعاصر ، بالقدر الذي يتعلق بمدارسه ، وما تضيء به للإنسانية من أنظار . وهو لا يريد أن يقدم آراء المؤلف الخاصة في أية صورة مذهبية ، وإن لم يمتنع عن شروح شخصية هنا وهناك . ثم هو لا يهدف إلى نقد شامل المدارس المختلفة ، ولا إلى تقدير عام حتى يتأدى بالقارىء إلى واحدة منها ويبعد به عن الأخرى ، وإنما غرضه أن يقدم صورة لهذه المدارس لا محاباة فيها ، حتى يتهيأ للقارىء أن يقف على المعالم الرئيسية لكل منها في غير توسع مربك ، ولكن بالقدر من التجسيم الذي يعطي لونا لهذه الصورة . »

وهذه المدارس المعاصرة التي تتوزع ميدان علم النفس فيما بينها ، إن دلت على شيء ، فعلى حداثة هذا العلم ، وعلى أن موضوعه لم يتعين ، ومنهجه لم يتضح ، وغايته لم تتحدد بعد . ولا بد أن تمر عشرات السنين قبل أن يتأدى الصراع القائم بينها إلى موضوع لعلم النفس محدود ، ومنهج واضح ، وغاية معلومة ،

والمسرحية فكاهية ، وهي كذلك بجهود الممثلين وحركاتهم أكثر مما هي بالحوار ، فأنت تحس في المواقف المختلفة بالمادة « الخام » التي لم يصنع منها ما تصلح له من الفكاهة ، فالحوار ضعيف فاتر من هذه الناحية وإن كان الممثلون يبثون فيه شيئا من الحرارة ، وكان يخيل إلى أن الممثل الظريف فؤاد شفيق يعاني ضيق الحيز الذي وضع فيه فيحاول أن يوسعه ولكنه يطبق عليه .

أما إخراج الرواية فهو الذي كسا عظمها لحما وجعل لها روحا ، من حيث تنسيق المناظر وتوزيع الأضواء وتحريك الممثلين والممثلات ، فقد بدت المناظر موافقة رائعة معبرة ، فالشاهد يرسل بصره إلى المسرح في المشهد الأول حيث بهو الاستقبال في القصر ومن ورائه حديقة غناء ، فلا يخالجه شك في حقيقتها وما هي بطبيعة الحال إلا رسوم وأضواء ، ومن المناظر العجيبة منظر الشرفة تبدو منها حمرة الشفق تارة ويرسل إليها القمر أشعته تارة أخرى ، والابداع الفني في تهيئة المنظر للموقف وملاءمته لأحوال من يتحركون فيه والاستعانة به على التعبير وإبراز المقصود منه . وللأستاذ زكي طليمات طريقة لطيفة في تقديم شخصيات ثانوية صغيرة ينعكس عليها جو الرواية ، فالجو هنا كله رياء ونفاق ، وهذا الغلام (رضوان) الذي يقول أبوه إنه ملاك طاهر والذي يتقضى ويطرق أمام السيدات ، هو أيضا يسير في ركاب الرياء ، بل يجسمه ، إذ هو لا يلبث أن يسطو على الخادمة اللعوب ويهرب معها .

وقد أدى الممثلون والممثلات أدوارهم بجد وإخلاص ، ووفق أكثرهم ، فكان حسين رياض بارعا في تصوير الشخصية التي تدور عليها المسرحية وقد اندمج فيها كل الاندماج . وكان أحمد علام موفقا في تمثيل الرجل الحازم الحذر كما كان ظريفا في إشاراته ونبرات صوته ذات المعنى الذي يلوح إليه ، ولكنه كان فاترا أمام الفتاة التي تحبه ويحبها . أما عمر الحريري ، وهو من خريجي معهد التمثيل ، فقد أثبت أنه دم جديد نابض . وكانت زينب صدقي طبيعية مجيدة في تمثيلها وإن كان الدور غير ملائم لها ، وهو دور امرأة تثري شابا وتدفعه إلى محاولة اقتناصها ، وقد أمكن أن تبدو رشيقة خفيفة الحركة ولكن الصوت وظلال الشخصية كانت بعيدة عما يتطلبه الدور من بعض الصبا والشباب .

عباس خضر

يتفرغ العلماء بعد الوقوف عليها إلى تناول موضوعات جزئية لها صيغة موضوعية داخل هذا الاطار الذى تكون معالمه قد وضحت كما هى الحال فى العلوم الطبيعية .

والكتاب يقع فى سبعة فصول :

الأول : ما وراء خلافاتنا الجارية

الثانى : سيكلوجيا الاستبطان والمدرسة الوجودية .

الثالث : السلوكية .

الرابع : سيكلوجيا الجشطلت أو الشكلية :

الخامس : التحليل النفسى والمدارس اللاحقة .

السادس : مذهب القصد أو علم النفس الهورمي .

السابع . وسط الطريق

ويستهل المؤلف كتابه بالحديث عما يسميه « النظام القائم » Established order الذى كان يسمى وقت انتشاره وذيوعه ، علم النفس الحديث ، تميزا له عن سيكلوجيا العصور الوسطى وسيكلوجيا ديكارت وهوبز وليبنتس وغيرهم . وهذا « النظام القائم » ارتباطى فى أساسه . والارتباطيون فى علم النفس هم الذين حاولوا فى القرن الثامن عشر ، ومستهل القرن التاسع عشر أن يردوا جميع العمليات العقلية إلى عملية الارتباط Associatio أو التداعى وحدها ، بدلا من ردها إلى أساس عام من الحركة كما فعل هوبز مثلا ، حينما فسر هذه العمليات تفسيراً « جعلها فى صف واحد مع العمليات الفيزيقية ... فالحركة الخارجية تقع على أعضاء الحس فتتصل بالأعصاب والمخ والقلب ؛ والحركة الداخلية — عند ما تبدأ — تستمر بحكم القصور الذاتى inertia على هيئة ذكريات وأفكار » ص ٥١

ويعرض المؤلف لما كان لعلمى الكيمياء ، والفيزيولوجيا من تأثير كبير على مناهج علم النفس فى القرن التاسع عشر ، بعد أن عرض علينا ما كان لعلم الطبيعة من أثر واضح عليها فالكيمياء أوحت بفكرة « كيمياء العقل » mental shimistry ، التى تحلل مركبات العقل ، كما تحلل الكيمياء المادة إلى عناصرها الأولية وبعد إرعاصاً لما سمى بالتحليل النفسى فيما بعد . أما الفيزيولوجيا فقد أوحت بفكرة « التجريب » فى علم النفس ، فكان ميلاد أول معمل لعلم النفس التجريبى ، أنشأه فنت فى ليبتسك سنة ١٨٧٩ وكانت ثورة السيكلوجيا التجريبية على النفس السابق عليها من حيث منهجه ومستواه العلمى أكثر منها على نظريته . فبينما قنع عالم النفس السابق بأن يستعين على البرهنة بالذاكرة وخبرته الشخصية العامة مع ما فيها من عدم الثقة ، إذا بعلم النفس الجديد يصر على أن تقوم حقائقه على ملاحظات مسجلة ومحددة » .

ويتابع المؤلف حديثه عن المؤثرات الخارجية المختلفة ، التى استهدف لها علمنا الناشىء . فيعرض لكل من البيولوجيا العامة — وعلى الخصوص نظرية التطور Theory of EVolurion — وما كان لها من ثورة على علم النفس القديم ؛ ولعلم الطب العقلى psychiatry وما كان من انقسام اطبائه إلى معسكرين : نفسيين psychists يبحثون عن أسباب المرض فى العقل ، وجسميين somatists يرجعونها إلى اضطرابات فى المخ . ثم يبين ما كان من جانب علماء النفس من محاولات جدية — كرد فعل لهذه المؤثرات الخارجية — لفصل هذا العلم عن الفلسفة ، وعن غيره من العلوم التى لها به صلة قريبة أو بعيدة .

وقد كان علماء النفس فى أواخر هذا القرن يعرفون علمهم بأنه علم الشعور science of consiousness ، وبالتالى كانوا يتخذون الاستبطان منهجاً لهم . ثم جاء القرن العشرون الذى حاول المشتغلين فيه بعلم النفس أن يثوروا على هذا « النظام القائم » فى القرن الماضى متلمسين ما فيه من مثالب وهنات ؛ « فتمزقت بينهم أربا سيكلوجيا القرن التاسع عشر القديمة المكينة عزقاً لطيفا ، ونشأت مدارس تعارضت مع بعضها البعض تماماً كما تعارضت مع علم النفس القديم » ونجم عن ذلك فترة نشيطة جداً ذات نظام لم يقرر بعد » ص ٥٧ وحاولت كل من هذه المدارس أن تحدد موضوع علم النفس ، وأن تتخذ لنفسها منهجاً خاصاً يتأدى بها إلى نتائج حقيقية خاصة . وهى قد أجمعت — وإن اختلفت فى الوسيلة — على إعلان الثورة على هذا « النظام القائم » الذى يصور علم النفس باعتباره « دراسة للشعور » متخذاً « الاستبطان » منهجاً يستخدمه فى دراسة الانسان .

فعلم النفس كما يراه السلوكى مثلا « هو شعبة تجريبية موضوعية خالصة من العلم الطبيعى . وهدفه النظرى هو تنبؤ السلوك وضبطه . وليس الاستبطان جزءا رئيسياً من مناهجه ، ولا القيمة العلمية لحقائقه تقوم على استعدادها لأن تعبر عن نفسها بألفاظ الشعور ...

ولعله لا بد قد حان الوقت الذى يطرح فيه علم النفس كل إشارة إلى الشعور . إذ لم تعد به حاجة بعد إلى أن يخدع نفسه فى حسبان أنه يجعل الحالات العقلية موضوعاً للاحظته » ص ١٤٠

وبينما السلوكيون يحاولون إبعاد الشعور عن ميدان علم النفس ويقصرون دراستهم على السلوك وحده ، نرى فريقاً آخر من العلماء ، لم تنشأ مدرستهم عن علم النفس ذاته ، وإنما نشأت عن ابحاث الطب العقلى psychiatry ؛ تلك هى مدرسة التحليل النفسى ، وعلى رأسها النمسوى فرويد ، الذى اتخذ ما يجرى فى اللاشعور ، من ذكريات وأحلام ، موضوعاً لدراستها بوسائلها الخاصة .

ولقد حاولت مدرسة أخرى جديدة هى مدرسة القصد purposiVtst School وعلى رأسها مكدوجل ، أن تتخذ لعلم النفس موضوعاً من الدوافع الانسانية ـ من غرائز وعادات وانفعالات وأفعال منعكسة ثائرة بذلك على النزعة العقلية التى كانت تسيطر على هذا العلم وعلى الايمان بأن منهج الاستبطان هو وحده المنهج الصحيح فى علم النفس .

وليس معنى هذا أن علماء النفس القائلين بالشعور موضوعاً وبالاستبطان منهجاً لعلم النفس ، قد قنعوا بالثورات المختلفة التلاحقة من جانب هذه المدارس على مذهبهم ، وإنما يعدلون فيه بالقدر الذى يظهرهم وسط الميدان وكأنهم أصحاب مدرسة جديدة ؛ فالى جانب ايمانهم بالاستبطان قالوا بأن علم النفس هو علم خبرة الفرد the science of Indlidiuals experence مهمته « وصف هذه الخبرات وتحليلها ، ومقارنتها ، وتصنيفها ، وترتيبها فى نظام دقيق . فكانت الخبرات تدرس وكأنها موجودات Existences وبعبارة أخرى ، أن علم النفس الوجودى كان يجد متعة فى الفرد كصاحب EXpereincer ، وليس كقائم بالعمل performer ؛ ص٧٧

ونشأت مدرسة أخرى هى مدرسة الجشطلت Gestott أو مدرسة الصيغة Confeguration التى ثارت على المذهب الارتباطى من حيث عنايته ، على الخصوص ، بالجانب العقلى من الحياة ، ومن حيث أنه « أخذ بالاحساسات البسيطة على أنها العمليات الأولية ، التى منها تتركب الخبرات والأفكار المركبة » ص ١٧٤ . كما أن هذه المدرسة ـ على العكس من السلوكية التى نادت بتحليل السلوك لا الخبرة ـ قد اطرحت ، على الاطلاق ، منهج التحليل ، سواء منه ما اختص بالسلوك أو الخبرة . وقد رفضت هذه المدرسة كذلك فكرة المعانى باعتبارها فكرة مضللة ، كما رفضت الاحساسات ، وعلى الأقل الأولية منها على أنها عناصر للخبرة التى سبق لها أن رفضتها هى الأخرى .

* * *

تلك هى الخطوط الرئيسية لمدارس علم النفس المعاصرة ، التى عرض لها وودورث فى كتابه الذى لم يشأ مؤلفه أن يقف به عندها ، دون أن يعرض علينا شذرات من مذاهب لعلماء مبرزين فى ميدان علم النفس ، ولكنهم مع ذلك لا ينتمون إلى هذه المدرسة أو تلك .

ففى بريطانيا : نجد الأستاذ سبيرمن بجامعة لندن الذى ولد سنة ١٨٦٣ ، والذى احتدم الجدل بينه وبين ثورانديك حول طبيعة الذكاء . كما نجد الدكتور . ش . ص . ما يرز بلندن وكان مديراً لأول معمل سيكلوجى فى بريطانيا ـ معمل كيمبردج ثم عين مديراً لمعهد علم النفس الصناعى القومى .

وفى المانيا : نجد الأستاذ فليكس كريجر Filix Kreuger « ولد سنة ١٨٧٤ » ، الذى يعارض الجشطلت « فيبين أن الشكل الذى ندركه فى أية لحظة هو ذاته متضمن فى شعور كلى ؛ فالشعور عنده حقيقة أكثر جوهرية من الصورة الخلقية » . كما نجد الأستاذ . ا . اشبرانجر ESpranger بجامعة برلين (ولد سنة ١٨٨٢) . ومن تلاميذ ميلر Muller اثنان هما فيبنش E R jaensch الأستاذ فى ماربورج ، ودافيد كاتس DaVid Katz الأستاذ فى رستوك . كما يذكر المؤلف الاستاذ وليم استرن wStern تلميذ اينجهاوس .

وفى سويسرا : نجد الأستاذ كلاباريد Claparéde الذى أنشأ معهد روسو لدراسة الأطفال .

وفى ايطاليا نجد Benussi الأستاذ السابق بجامعة بادو . كما نجد الأستاذ S de sanctis المشهور بتخصصه فى الأمراض العصبية والنفسية ، والأستاذ كيروا الذى كان تلميذاً ، قديماً لفنت . والأستاذ Fikesow المعروف بقياساته المجهود وبدراساته للتعب .

قلب كبير

« إلى صديقي الأستاذ أنور المداوي
لحبه بقلبه الكبير »

للأستاذ شاكر خصباك

من كان يتصور هذا ؟! من كان يتصور أن ذلك القلب الصغير يتسع لكل تلك العواطف الكبيرة الزاخرة بأسمى مشاعر الحب والوفاء ؟! أجل ، من كان يتصور هذا ؟! ومع ذلك فقد

جرى كل شيء في بساطة مدهشة .

كان المنزل الذي اتخذته مقرا لي في القاهرة يعج بالمغريات ، وكنت أحاول إقناع نفسي باستئناف حياة جديدة خالية من عنصر النساء - بعد أن جر علي متاعب جمة - فانطلقت أنقب عن أسرة صغيرة أشاركها العيش علني أسكن إلى حياة رزينة . وهكذا عرفت تلك الأسرة الفرنسية الطيبة . وكان قوامها زوجين في العقد الرابع من عمرهما وصبية في ربيعها الثالث عشر ذات حظ موفور من الحسن يشعرها الأصفر الذهبي وعينيها الزرقاوين الواسعتين وملامحها الدقيقة الساذجة .

وانطويت على نفسي في الأيام الأولى ، فلم أتبادل مع الأسرة سوى أحاديث قصيرة على مائدة الطعام . وفيما عدا ذلك كنت أعتكف في غرفتي منصرفاً إلى القراءة والدرس . لكنني ما لبثت

وفي فرنسا : نجد الأستاذ هنري بيرون المولود في سنة ١٨٨١ . كما نجد الأستاذ جورج دوماس george Dumas المعروف بأبحاثه الخاصة بالانفعالات .

وفي روسيا : نجد تيارا جديدا ينادي بدراسة الفرد « كعضو في طبقة اقتصادية أو مهنية » ؛ ويتزعم هذا التيار علما نذكر منهم الأستاذ كورنيلوف المولود في سنة ١٨٧٩ ، ومدير علم النفس التجريبي في جامعة ولاية موسكو .

ونحب هنا أن نشير إلى أن مؤلف هذا الكتاب ، هو نفسه من بين علماء وسط الطريق أو أن هؤلاء العلماء لا يقفون من المدارس المعاصرة في علم النفس موقف المتفرج ، بل إنهم يقومون بمهمة التوفيق حينا ، وحينا آخر يقومون باختيار ما هو أحسن ، وأقرب إلى الصواب عند كل من هذه المدارس ، ليسيروا به قدما ، تاركين المدارس في تنازعها وتضاربها . فعلى يدي علماء وسط الطريق يجب أن نتوقع من الكشف والاستقلال في الموضوعات والمناهج على السواء أكثر مما نتوقع من المدارس .

* * *

وبعد فهذا رسم تخطيطي للكتاب الفذ الذي اضطلع بمهمة ترجمته إلى العربية الأستاذ الشاب « كامل دسوقي » بما عرف عنه من حماس للعلم منقطع النظير . ولا يفوتني هنا أن أشكر لصديقي الأستاذ هذا المجهود الجبار الذي بذله ، من يوم بدأ يترجم كتابه طالبا بالسنة النهائية من قسم الفلسفة بكلية الآداب . وتتجلى آثار هذا المجهود في مقدمته التي يلخص فيها أهم التيارات التي تجاذبت علم النفس ، والتي يورد فيها ترجمة وافية دقيقة لمؤلف الكتاب وثبتا لمؤلفاته ، كما يتجلى في التعليقات المسهبة التي يعقب بها المترجم على كل فصل من فصول الكتاب » وهذه ميزة لا نعرف أن المؤلف قد سبق إليها من قبل . وفي ثبت المراجع الذي ذيل به الكتاب فضلا عن المراجع التي أوردها المؤلف ، كما تتجلى كذلك في أمانة النقل ، ودقته ، مع ما في أسلوب الكتاب من التواء وغموض .

وختاما أرجو لعلم النفس على الخصوص ، وللفلسفة بوجه عام ، خيرا كثيرا على يدي المترجم وغيره من الشبان المشتغلين بهذه الدراسات في مصر والشرق العربي ، عن طريق الترجمة والتأليف على السواء .

المنصورة

مصطفى أحمد فؤده
ليسانسيه في الفلسفة
ومدرس بالمدارس الأميرية بالمنصورة

أن استشعرت الوحشة فى هذه الحياة الرتيبة ، وحنت إلى دنيا اللهو والمرح . وخشيت أن يفلت الزمام منى فعقدت العزم على الاندماج فى الأسرة لو أد هذا الحنين . وقد شجعنى ما لمسته فى الزوجين من طيبة ونبل على المضى فى قرارى قدر الامكان .

وشرعنا ننتظم كل مساء فى جلسة هادئة لنتحدث فى شتى شئون الحياة . وكنت أنصرف إلى الزوجين أثناء تلك الجلسات غير معنى بتوجيه الحديث الى فلورا . وأحسب أننى لست ملوما على ذلك السلوك . فقد كانت هى دونما لى على تجاهلها بما كان تبديه من جمود أقرب إلى النفور . وكان يحدث لى أحياناً أن ألفت نحوها عفواً فأراها معلقة الأنظار بوجهى وهى سارحة الفكر ، وتلتقى عيناى بعينيها وسرعان ما تغض طرفها فى ارتباك وتعلو وجنتيها حمرة خفيفة .

وضقت بجمودها ذرعاً فسألت والديها عما يدعوها إلى النفور منى ، فأكدا لى أنها شديدة الخجل وأنها فى حاجة إلى مدة كافية ربما تألف صحبتى . فحفزنى هذا الكلام على انتهاج خطة جديدة للتقرب إليها ، وبدأت أوليها نصيباً كبيراً من عنايتى . وسرعان ما أخذت فلورا تتحرر من جمودها شيئاً فشيئاً وإن لم يزايلها خجلها الشديد .

« إن فلورا طفلة عجيبة » . تلك هى الفكرة التى نبعت فى أعماق وتسربت إلى جوارحى رويداً رويداً حتى تشبع بها كيانى . إنها عجيبة بوجهها البرىء وخجلها الساذج وسلوكها المثير . وكلما ازددت بها معرفة اشتدت محبتى لها . شىء معين فيها كان يضرم حبى . أهى تلك النظرة الوادعة التى تطل من عينيها دوماً ؟! أم تلك الحمرة الوردية التى تصبغ وجنتيها أبداً بصبغة الحياء ؟! أم تلك الملامح العذبة التى تعبر أدق التعبير عن طهارة الطفولة وجمالها السامى ؟! لا أدرى بالضبط ، ولعل تلك الأسباب مجتمعة كانت تحببها إلى . وحمدت الله حين بدا لى أن نفورها القديم منى قد اختفى تماماً . وعجبت كيف ألفت صحبتى بتلك السرعة المدهشة حين غمرتها باهتمامى . وأصبح من الواضح أنها تحمل لى بين جنبيها مودة عميقة . لكن هدوءها المتناهى وخجلها الشديد كانا يطبعان حركاتها بطابع التزمت . ولعل الشىء الوحيد الذى كان يعلن عن تلك المحبة هو عيناها ... عيناها المنطويتان على بحر جياش بالعواطف المضطرمة . ومع أنها كانت تحب أن تجلس إلى دوماً ، إلا أنها لم تكن تقتحم على غرفتى أبداً ، بل كانت تنتظر فى لهفة أن أسألها ذلك بنفسى . واعتدت بدورى أن أستدعيها إلى غرفتى عصر كل يوم حين تعود من المدرسة ، لتقص على ما مر بها من حوادث النهار . وقد يصادف أن يضيق وقتى عن الاستماع إليها بعض الأحيان ، فأضطر إلى القراءة والتظاهر بالاستماع ، فكانت تكف عن الكلام وتركن إلى الصمت رغم احتجاجى . وتجمع على [illegible] عينين .. عينين حنونتين تتملقان بوجهى فى شرود . لكنها رغم كل شىء كانت تحرص على قضاء العصر معى ، فتتعمد المرور أمام باب غرفتى — ساعة رجوعها إلى المدرسة — وتخاطب أمها بصوت عال ليبلغ مسامعى ، حتى أدعوها إلى .

والواقع أننى لم أستشعر الضيق من إقبالها على صحبتى بهذا الحماس العظيم ، بل كنت أشجعها على ذلك غاية التشجيع ، حتى أننى قبلت حين سألتنى ذات يوم فى إلحاح أن أدرسها اللغة العربية فى فرصى السانحة . فقد كنت آمل أن تصرفنى صحبتها عن الصديقات اللاهيات . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى كنت أحس نحوها بحب صادق ومودة عميقة ، وحملنى ذلك على ملازمتها دوماً ، بل دفعنى إلى استصحابها فى نزهاتى خارج الدار ، حتى صار من المألوف أن تكون فلورا برفقتى كلما رغبت فى نزهة أو قصدت إلى سينما . وكم كانت تحس بالغبطة والسرور لتلك النزهات ، فكأن شملة سحرية من السعادة تتوهج فى أعماقها فيفيض وجهها بشراً وهناءة ! غير أننى فى الحقيقة لم أكن دائم الرضى عن هذه الحياة ، بل كانت تتملكنى أحياناً مشاعر أسى ويرمضنى حنين ملح إلى حياتى اللاهية . لكننى كنت أسارع إلى الافلات من شراك تلك المشاعر فيعاودنى الاطمئنان وهدوء البال .

وذات أمسية كنت أتنزه مع فلورا فى شارع فاروق المحاذى للنيل فالتقيت بصديق حمدى ، وكنت لم أره من مدة بعيدة ، فهتف فى دهشة ممزوجة بالفرح : ماذا جرى لك يا سامى ؟! لم يعد يوسع أحد أن يراك .

فأجبته معتذراً : إنها ظروف الحياة لعنها الله .. حقا إننى

مشتاق لرؤيتك .

فصاح مازحاً وهو يرمي فلورا بنظرة استغراب : لعلك مشغول بهذه الطفلة .. ولكنني لا أرتضي لك هذا المصير الأليم بعد مغامراتك الرائعة مع الغيد الحسان .

وربت على كتفي مداعباً وانصرف مع رفاقه ضاحكاً . وتابعت التنزه مع فلورا وعباراته الساخرة تموج في أعماقي .. لعلك مشغول بهذه الطفلة .. لعلك مشغول بهذه الطفلة .. أنا مشغول بهذه الطفلة .. هل وعى وقف على هذه الطفلة .. لم أعد أعرف معنى المرأة الناضجة .. فلورا تسرق شبابي . فلورا تسرق شبابي .. فلورا تسرق شبابي ..!

مرت أيام وأنا مرهق الذهن بتلك الأفكار الثائرة . وعادت صور الماضي الغريبة تراود مخيلتي في إلحاح . وضجت أعماقي بالسخرية المرة .. ما أتفه عقلي وأسخف سلوكي ! كيف بددت وقتي طيلة هذه الأسابيع برفقة طفلة صغيرة تابعاً الفتيات الناضجات اللواتي يقدمن لي كل ما تتوق إليه نفسي ؟!

ثم تحطمت القيود التي كبلت بها رغباتي منذ أن هبطت على دار الأسرة الفرنسية، وجددت الصلة بنفر من صديقاتي القديمات وتبعاً لذلك تغير منهج حياتي . لم يبق لي هناك وقت للانضمام إلى أفراد الأسرة في جلستهم اليومية بعد العشاء . ولم يعد بإمكاني أيضاً أن أرى فلورا عصراً، إذ طفقت أغادر الدار قبل أن تؤوب من المدرسة. وبدأت أحاول أن أقتصد في الوقت الذي أقضيه في المنزل فأقصره على القراءة والدرس . واقتضاني ذلك أن أتجنب الاجتماع بفلورا جهد إمكاني .

لم يعبأ الزوجان بالانقلاب الذي طرأ على حياتي كثيراً ، أما فلورا فانقلبت حياتها تبعاً لانقلابي . وطبيعي أنني لم أعد أراها كثيراً في عهدي الجديد لأعرف الشيء الكافي عن حياتها ، لكنني أستطيع أن أعلن ذلك الحكم وأنا مطمئن إلى حقيقته . فقد أدركت كل شيء من عينيها .. ذلك الكتاب المفتوح الذي كانت صحائفه تعكس صدى عواطفها في صراحة وصدق . تعكر البحر الصافي العميق الأغوار بنظرة حزينة ، وامتزجت العذوبة الفياضة في الوجه البريء بسحة كدرة . كان يكفي أي شخص أن يلقي عليها نظرة عابرة ليوقن أنها طفلة معذبة . وأحسب أن عواطفي قد تحجرت تلك الآونة فلم يثرني عذابها كثيراً . أو لعل اندفاعي في تيار اللهو كان يستغرق كل اهتمامي . فلورا .. تلك الطفلة المذبة .. أية قسوة كان ينطوي عليها قلبي لأندفع في إيلام مشاعرها دون أدنى اكتراث ؟! كان لا بد لها أن تراني وإن لم أعد أدعوها. وبدأت تتسلل إلى غرفتي في خطوات مضطربة وتقف أمامي وهي خافضة النظر . وأرفع رأسي وأنظر إليها في شيء من الضيق ، فتبادرني قائلة بلسان متلعثم : ألا يمكنني أن أحدثك عن المدرسة الليلة ؟

فأرد عليها في لهجة مبرمة : من فضلك يا فلورا .. في وقت آخر .

فيتكدر صفاء وجهها بتغطية اكتئاب وتلتوي شفتاها ، ثم تنسحب بهدوء وفي عينيها نظرة كسيرة . أما الدرس العربي فقد باعدت بين مواعيده حتى أصبح في حكم المعدم . لكنني لم أكن دائم القسوة معها ، بل كنت أجيبها إلى سؤالها أحياناً ، فأصحبها في نزهة أو إلى السينما ، وأن اعتذرت عن طلبها في غالب الأحيان وحملتها من عذاب الخجل مالا تستطيع حمله .

وذات أمسية غادرنا دار السينما بعد مشاهدة فيلم غرامي ، وسلكنا شارع سليمان باشا عائدين إلى المنزل . وكانت فلورا تسير إلى جانبي والسرور ينير وجهها ، وهي صامتة تائهة كأنها تحت سلطان قوة خفية ! وفجأة التفتت إلي في تردد وسألتني بصوت راعش والدم يندفع إلى وجهها لاهباً : ماذا يعني وقوع المرأة في غرام الرجل يا سامي ؟

فنظرت إليها دهشاً ، ثم أدركت على الفور أن عنف العواطف في « الفلم » قد أثار فضولها . فقلت بلهجة متلطفة : لا تشغلي الأمور يا عزيزتي فلورا .. هذه عاطفة يصعب على الصغار فهمها ، وستدركين معناها — عندما تكبرين — من تلقاء نفسك .

فقاطعتني بلهجة احتجاج: ولكنني أستطيع فهمها الآن فأنا فتاة كبيرة. أنت لا تعرف عمري الحقيقي .. إن لي خمسة عشر عاما .

فأجبتها مازحاً: حقا ؟! لقد كنت أعتقد أنك في الثالثة عشرة من عمرك . انت تبدين أصغر من سنك كثيراً ..!

فصاحت فرحة : هذا صحيح .. إنني أبدو أصغر من سني كثيراً ، وفي وسعي أن أفهم كما تفهم الفتيات الكبيرات ..

فقلت لها في لهجة جدية : إسمعي يا فلورا دعي السؤال عن

مثل هذه الأمور حتى تكبرى ، فأنت الآن طفلة صغيرة لا يصح أن تلقى هذه الأسئلة على الآخرين .

وما كدت أفرغ من قولى حتى سمعت صوتاً يهتف فى حرارة: «هالو سامى!» . والتفت ، وإذا بى أمام صديقتى «سوسو» التى كنت قد أخلفت موعدى معها قبل أيام ، وراحت «سوسو» تتفنن فى عتابى متهمة إياى بتفضيل صديقاتى الأخريات بينما انطلقت فلورا ترقبها فى غيظ واشمئزاز. واستطعت أن أتخلص من عتابها أخيراً بالاتفاق على موعد آخر ، فانصرفت وهى تحذرنى من اخلاف الموعد مرة أخرى . وتابعت السير مع فلورا فى صمت ، وعبثاً حاولت وصل الحديث بيننا ، إذ تمسكت فلورا بصمتها وقد ارتسم على وجهها شتيت من عواطف الخيبة والمرارة والغيظ .

* * *

تغير سلوك فلورا تجاهى منذ تلك الليلة تغيراً عجيباً ولم تعد تحتفظ لى بمودتها القديمة . فقد صادف فى اليوم التالى أن كان ميعاد درسها العربى ، فاستدعيتها إلى غرفتى لتستمع إلى الدرس. ولشد ما دهشت حين قرأت على صفحة وجهها دلائل قسوة وعنف ولمحت فى عينيها نظرة صارمة يمتزج فيها الغضب بالنفور بالأسى. وانتصبت أمامى شامخة الأنف مقطبة الوجه ، فنظرت إليها متعجباً وقلت باستغراب : اجلسى يا فلورا ... ألست مستعدة لدرسك العربى ؟!

فأجابتنى بلهجة جامدة : كلا ..

فسألتها فى دهشة : لماذا يا فلورا ؟! يجب أن أعرف فالأمر يهمنى

فانفجرت صائحة فى غضب : انت تخدعنى فالأمر لا يهمك إننى لم أعد أحب هذه اللغة . . لا أحبها . . لا أحبها . . ولن أستمع إلى درس عربى آخر .

وروعتنى ثورتها فلبثت أرقبها صامتاً مشدوهاً . وقبل أن أستفيق من ذهولى هرعت إلى غرفتها وأوصدت وراءها الباب. وقصدت إليها من فورى واستويت إزاء الباب بعد أن نقرت عليه فى رفق . هيه ... هى ... ماذا؟! أتبكين يا فلورا؟! ساد الصمت برهة ، ثم تناهى إلى سمعى صوت مرتعش يهمس: «أرجوك ... اذهب» فقفلت راجعاً إلى غرفتى تتنازعنى مشاعر الألم والاشفاق .

انطوت فلورا على نفسها ، وبانت تحتجب عن عينى دوماً . ولم أعد أراها إلا على مائدة العشاء وهى مقبلة على طعامها موردة الخدين خافضة النظر . وحين تلتقى أنظارنا عرضاً يحمر وجهها وتلتمع عيناها ويزوغ بصرها عنى وجهى فى قلق وارتباك . وأيقنت أنها عادت إلى نفورها القديم منى ، فقد أصبحت كل حركة من حركاتها وكل لفتة من لفتاتها تعبر عن هذا النفور ، ولكن عينيها ظلتا مشحونتين بأسى عميق ووجهها مغلفاً بكآبة قاسية .

ومضت الأيام وأنا مشغول بصديقاتى اللاهيات غير عابئ بأمر فلورا . وظلت هى تحرص على الابتعاد عنى فتؤازرنى فى اهمالها ، إلى أن حل ذلك المساء. ورجعت إلى المنزل على غير ميعادى ، وما كدت أفتح باب غرفتى حتى ألفيتنى وجهاً لوجه أمام فلورا. ! ألم يحدث لك أن فاجأت لصاً يهم بمغادرة المكان بعد أن سرق أثمن محتوياته ؟ ! تلك هى حالتها بالضبط حينما باغتها بدخولى . تقاصت ملامحها واكفهر وجهها واشتعلت عواطف الخوف والحيرة والخجل فى عينيها القلقتين. ماذا بك يا فلورا ؟! ما الذى يروعك؟! خطوت نحوها فى بشاشة فاندفعت صوب الباب بلهفة طائر سجين فُتح له القفص سهواً ... كلا ، لن أدعك تخرجين . وقبضت على ذراعها وأنا أقول فى لطف : مرحباً بك يا فلورا ... لماذا تسرعين ؟ !

فانطلقت تناضل لتخليص ذراعها من قبضتى وهى تردد بصوت مخنوق : دعنى أذهب ... أرجوك ، دعنى أذهب .

لكننى أجلستها على أحد المقاعد عنوة وأنا أقول فى رقة : مهلا يا عزيزتى فلورا ... لا داعى للعجلة..

فصاحت فى لهجة غاضبة وهى تتململ فى مقعدها : أنا لست عزيزتك ... دعنى أذهب .

فواصلت كلامى ضاحكاً : لا تثورى يا فلورا ، فأنا أعلم أنك غاضبة علىّ . والآن أنبئينى ؛ أجئت لتزورينى أم لتستردى كراسة اللغة العربية ؟!

فرمقتنى لحظة بنظرات متأملة ، ثم غمغمت بلهجة متعثرة : أعطنى دفتر اللغة العربية .

فاتجهت إلى المكتب صامتاً ومضيت أقلب الكتب والدفاتر وهي ترمقني بنظراتها المبهمة . وحين قدمت إليها الكراسة حدقت في وجهي مليا ثم قفزت على قدميها ثائرة وانهالت على الكراسة تمزقها بأسنانها وهي تصرخ في لهجة معذبة : إني أكرهك ... أكرهك ... أكرهك .

وألقت الفصاصات على الأرض في عنف ومرقت من الباب ! وتهافت على المقعد مذهولا وصرخها يدوي في أذني ... تكرهني ؟! لماذا ؟! وأي دافع ساقها إلى غرفتي إذن ؟ ! ولماذا امتلكها الفزع ساعة رؤيتي ؟ !

وبدأ سلوكها الغريب يثير في رأسي عشرات الأسئلة ، وطفقت أحسب له ألف حساب . والظاهر أنني إنسان من طراز خاص يشذ عن الانسان العادي . فهم أنني أفلحت في التخلص من صحبتها ، ومع أنها غابت عن أفق حياتي ، كما شاءت رغبتي ، إلا أنني بدأت أحس إثر تلك الليلة بالضيق والحنق من تصرفاتها الغريبة . واكتسبت حاسة جديدة لنقد سلوكها تجاهي . لماذا تهرب من لقائي ؟! ولماذا تحاول أن تنأى عني ؟! أتكرهني حقاً كما أعلنت ذلك ؟ يالها من طفلة مزعجة . كأن المرء لا عمل له في الحياة سوى العناية بها ، فان لم يفعل ، فعليه أن يتلقى كراهيتها . طفلة شاذة تثير الأعصاب بتصرفاتها السخيفة . إذا التقيت بها في ردهة المنزل فرت من أمامي كما يفر الحمل من الذئب . وإن جلست إلى المائدة اعتكفت في غرفتها ولم تبارحها إلا بعد أن أخلي المكان . لماذا ؟! أأنقلبت وحشاً مفترساً ؟! أين تلك المودة التي كانت تغمرني بها ؟! إن الحياة لا تطاق في هذا المسكن .. لا تطاق . ماالذي يشدني إليه ؟! أخلت القاهرة من منازل مريحة ؟! يجب إن أتركه .. يجب أن أغادره إلى نزل آخر .

انتهيت إلى ذلك القرار أخيراً لكنني لم أدرك دوافعه الحقيقية حتى الآن . لماذا ضايقني ابتعاد فلورا عني مع أنني كنت راغباً فيه ؟! وماذا يضيرني أن تحتجب عني عيني طفلة لا شأن لي معها ؟! بل لماذا دفعني ذلك إلى اعتزام الخروج مع أنني مسميت لا بعادها بنفسي ؟ ! لا أدري بالضبط — والذي حدث بعد ذلك أن رغبتي تحققت عقب أيام قليلة ، فتركت المسكن ، ولكن لا إلى مسكن آخر ، بل إلى إحدى المستشفيات الخاصة حيث سقطت صريع المرض .

***

أنفقت بضعة أيام في المستشفى لا أكاد أصحو حتى أفقد وعيي وكنت أرى — كلما فتحت عيني — فلورا وأبويها إلى جانب سريري . وفي خلال أيام اشتداد المرض مررت بفترة قاتمة لا أكاد أتذكر منها سوى أخيلة باهتة يغلفها ضباب كثيف . وفي بين ذلك الضباب المتكاثف يبرز وجه فلورا قوياً واضحاً بلون شاحب وعينين قلقتين وقسمات تتفجر غماً وأسى ولا أذكر متى حدث ذلك وفي أية ساعة من النهار أو الليل ، ولكن الذي أتذكره أنني صحوت على صوت بكاء عنيف ، وفتحت عيني في صعوبة فطالعتني صور أشخاص ملتفين حول سريري . لم أستطع بادىء الأمر أن أميز أحداً منهم ، إذ بدوا أمام عيني كالأطياف . ثم تركزت ملامحهم شيئا فشيئا حتى تبينت فيهم الطبيب وفلورا وأبويها . لكن عيني تعلقتا بوجه واحد من وجوههم هو وجه فلورا . كانت الدموع تنحدر على خديها في غزارة وصوت نحيبها يثير في القلب أعمق الشجن . وهالني أن أراها شملة ملتهبة من الحزن والألم ، فابتسمت لها . وحينئذ حدث مالا يمكن أن يبرح ذاكرتي مدى الحياة . انطلقت تضحك في فرح جنوني وهي تحدق في وجهي كالمخبولة والدموع تنهمر من عينيها مدراراً . وتناهى إلى صياحها كأنه آت من بعيد وهي تهتف بصوت منهدج : « إنه لن يموت ... لن يموت ... ألم تروه كيف فتح عينيه وابتسم ؟! لن يأخذه الله ... إنه ليس شريراً ... سيشفى بعد أيام قليلة وسأراه كل يوم ... أليس كذلك ياماما ؟! لن يموت ياربي ... لن يموت » . ثم ابتعد الصوت المتحشرج عن مسامعي وبهتت صورة وجه فلورا الماثلة أمامي حتى لم أعد أتبين أو أسمع شيئاً .

وتلك هي الذكرى الوحيدة التي ظلت واضحة في خيالي أيام الغيبوبة . ثم انقضت تلك الأيام وبدأت أثوب إلى رشدي ، وما كان اسعدني بالنجاة حينما أنبأني الطبيب أنه يئس من حياتي حتى عملة ذلك اليأس على مصارحة الأسرة الفرنسية بنهايتي الحتمية . وأنه سعيد جداً إذ خاب ظنه أخيراً .

وانتظرت فى لهفة زيارة فلورا وأبويها ، فطال انتظارى حتى استبد بى القلق. فرجوت الممرضة سميرة ـ التى تشرف على تمريضى ـ أن تقوم باستجلاء الأمر . ولشد ماذهلت حين أعلنت لى فى اليوم التالى أنهم اعتذروا عن زيارتى بكثرة المشاغل! واستولى على شعور بالاستياء . والقلق ولبثت أياماً عدة أتوقع زيارتهم فى شوق متدفق وأنا ألقى على نفسى عشرات الأسئلة الحائرة دون أن أبتكر لأحدها جواباً معقولا . ثم أخذ اكتراثى بالأمر يتضاءل يوماً عن يوم إثر البلادة النفسية التى [illegible] وبين سميرة واستغرقت كل اهتمامى .

مرت الأيام بطاء كسالى وانزاحت عنى سمات المرض تجاه بشائر الصحة . وكنت قد عقدت النية على مبارحة المستشفى فى صباح اليوم التالى حين أقبل على رسول من صاحب المنزل ينبئنى برحيل الأسرة الفرنسية إلى فرنسا ويطلب إلى اخلاء الدار من متاعى . وللمرة الثانية اجتاحنى الذهول والاستغراب ، وانطلقت أسائل نفسى عن سبب هذا التصرف فى حيرة وغضب .

وفى صباح اليوم التالى قصدت المنزل لأنقل متاعى إلى أحد الفنادق ريثما أعثر على مسكن آخر . صعدت إلى الدار بصحبة البواب ليساعدنى فى حزم الحقائب . وما كدت أجتاز الباب حتى هاجتنى وحشة قاتمة وطفت على مشاعرى أحاسيس تفيض بالشوق والأسى . دخلت غرفتى وأنا أجيل النظر حولى حزيناً آسفاً . وبينما انصرف البواب إلى ترتيب كتبى وملابسى فى الحقائب وقفت مشلول الحركة استعرض مشاهد حياتى منذ أن دخلت الدار حتى غادرتها إلى المستشفى . وفجأة وجدتنى ألتفت إلى البواب وأسأله بلهجة مرة: لماذا رحلوا ياعبده؟!

فتوقف البواب عن العمل ، ونظر إلى فى حزن وأجابنى بلهجة كئيبة : أفلا تعلم يا أستاذ سامى ؟ ! لقد ماتت فلورا فكره أبواها المعيشة من بعدها فى مصر ... ماتت ميتة ألمية تحت عجلات « المترو » بينما كانت تستقله صباح أحد الأيام إلى المدرسة .

وصمت لحظة ثم أردف يقول بلهجة ارتياب : لقد سمعت من البعض أنها انتحرت من أجل شاب أصيب بمرض خطير أفقد الأطباء كل أمل فى انقاذ حياته وأنها لم تسقط من العربة قضاء وقدرا ... ولكنها مجرد إشاعة كاذبة ولا شك .

وأصبت بذهول أدنى إلى التحجر وأنا استمع إلى البواب ، وتبلد ذهنى حتى تعذر على أن أتابع ما يقوله . وطفقت أهمس فى لهجة تائهة : فلورا ماتت .. فلورا ما تت.. فلورا ماتت ...!

ثم لاحت منى التفاتة إلى زاوية الغرفة فلمحت الهدايا التى كنت قد قدمتها إليها فى شتى المناسبات . اقتربت منها بخطى ذاهلة ، وجعلت أقلبها بين يدى وخيال فلورا مائل أمامى وسمعى يتجاوب بتلك العبارة التائهة . واصطدمت يدى بصورة فوتوغرافية صغيرة ، فنظرت إليها فى إهمال ، وإذا بى أمام صورتى كنت قد فقدتها من أمد بعيد ... !

وداهمنى خور غريب وأنا أحدق فى الصورة مشدوها ، وسرى ضعف شديد فى ساقى فلم يعد بوسعهما حملى ، واحتبس الهواء فى صدرى حتى شعرت بالاختناق ، وفجأة تهافت على الأرض وعيناى تمتلئان بالدموع !

القاهرة شاكر مصباك

مجلس مديرية قنا

الادارة الهندسية القروية

تقبل عطاءات لغاية ظهر يوم ١٧ — ٥ — ١٩٥٠ عن عمليـــة التركيبات الكهربائية للانارة والاجراس للمجموعتين الصحيتين بناحيتى دندرة مركز قنا والدير مركز إسنا .

ويقدم الطلب على ورقة تمغة فئة الثلاثين مليما للحصول على الشروط والمواصفات من الادارة الهندسية القروية بقنا نظير دفع مبلغ ٥٠٠ مليم بخـــلاف مائة مليم أجرة البريد

ويمكن الاطلاع على الرسومات والبيانات اللازمة من الادارة الهندسية القروية بقنا .

٤٦٤٢